kitabweb-2013.forumsmaroc.com

الصديق الروندة

المهدي المنبهي

الوزير الشاهد على بداية الأزمة المغربية

من 1900 إلى 1903

الصديق الروندة

المهــــدي المنبــــهـي

الوزير الشاهد على بداية الأزمة المغربية

من 1900 إلى 1903

الإيداع القانوني
2006 / 0957

المطبعة
الرباط نيت المغرب
شارع الحسن الثاني – حي المنمار عمارة C رقم 3/6
ديور الجامع – الرباط
الهاتف / الفاكس : 037.20.46.32

الحمد لله وحده

إهـــداء

اهدي هذه الشندرات من المشاهد والشواهد، لأرواح من عاشوا تلك الحقبة الحالكة من تاريخ المغرب، أي : منذ أن تولى الحسن الأول مقاليد الحكم " 1837" إلى أن وقع ابنه عبد الحفيظ وثيقة الحماية مع الدولة الفرنسية في 30 مارس 1912.

لقد سقط المغرب – لأول مرة منذ أن من الله عليه بالإسلام – تحت حكم الاستعمار، وفقد نتيجة لذلك نعمة الحرية والاستقلال.

ومما لا شك فيه أن هناك جوانب من تاريخنا – في هذه الفترة – لا زالت غامضة، وأحداثا ما انفكت أسبابها ودواعيها خفية وقضايا ما برح الجواب عنها عالقا وألغازا ما فتئ حلها محيرا !

وما أضيفه اليوم ليس إلا شمعة في مزار أو فتيلة في مغار فعلى المؤرخ الباحث في هذه الفترة أن يثبت الحقائق بالاعتماد على الوثائق، وينفي أو يؤكد الاحتمالات بالدلالات والمستندات أو يلجأ إلى المقارنة والتحليل للاستنتاج عند الترجيح أو التأويل.

وقد كنت أطمح أن أتعمق في الموضوع وأتوسع في معالجته، غير أني لما وصلت منتهى العقبة، أدركت اني إن تجاوزته سقطت وإن تراجعت عثرت؛ فاكتفيت بما حصلت عليه، قانعا بما اعتمدت عليه، راضيا من الغنيمة بالإياب، ومن الحصيلة بالثواب، لمن أخطأ أو أصاب. والله ولي التوفيق.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

أنوب عن القارئ فأتساءل:

"لماذا المهدي المنبهي[1] بالذات رغم شح المراجع وندرة الوثائق وقلة المستندات وغياب الحقائق".

أولا: لأنه برز في عهد بلغ فيه المغرب أقصى درجات الضعف والانحلال؛

فقد مات الوزير أحمد بن موسى الذي كان يقبض بيد من حديد على زمام السلطة في الداخل ويقف صامدا أمام المناورات الأوربية في الخارج.

وبموت هذا الرجل الفذ سنة **1900** بقي الملك وهو ابن عشرين سنة وحيدا في حلبة الصراع على السلطة بين أعضاء حاشيته، ووجها لوجه مع أطماع وضغوط الدول الاستعمارية الأوربية. فالسنوات الست التي قضاها على العرش لم يستفد منها لا في ميدان الإدارة ولا في مجال السياسة، لأن الوزير أحمد كان يسير دفة الحكم بمفرده فهو الذي قضى على ثورة أخيه الملك الأكبر مولاي محمد وعمه مولاي عمر اللذين شقا عليه عصا الطاعة بمجرد اعتلائه عرش أبيه الحسن الأول، كما استطاع بدهائه وحنكته أن يحافظ على سياسة التوازن بين القبائل في الداخل ومع الدول الأوربية في الخارج وقد كان المولى عبد العزيز على حداثة سنه غرا حاد الطبع متقلب

1- جاء في الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية "معلمة المدن والقبائل" الملحق 2 ص 357:
المنابهة: إحدى جماعات حوز مراكش
المنابهة: بطن من ولد علي كانت قديما تقيم في جنوب غربي تيماء حتى خيبر ثم انتقلت إلى شرقي شمالي الشام (قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص 174 وعشائر العراق للعزاوي ص 284

المزاج غريب الأطوار اعتلى العرش قبل أن ينضج عقله ويشتد عضده وتكتمل معرفته وتتوسع تجربته.

وقد كان الشعب عامته وخاصته يأنفون من حكمه ويتبرمون من عهده لصغر سنه وقلة علمه وجهله بالسياسة وانعدام خبرته بأساليب الحكم وتدبير شؤون الدولة.

ونورد كدليل هذه القصة المستخرجة من سجل لمحمد الروندة الذي لم يفته تسجيل بعض الأحداث التي عاصرها ومنها هذه الحكاية التي تسلط الضوء على جانب من بحثنا في هذه الحقبة الحالكة من تاريخ المغرب :

"وأخبرني المباركي المذكور "ذكر في صفحة سابقة"، أنه أخبره المسن محمد تانسفت من أهل قبيلة بني ملال ساكنا بقصبتهم بزنقة الكاف أنه كان حاضرا مع الشيخ البركة السيد الطيب بن عبد المالك الهواري ابن الهواري رجل يتبرك به وكان عنده ببني ملال هو وجماعة من الناس فدخل عليهم رجل فقال. يا سيدي الطيب أجارك الله في مولاي الحسن يعني سلطان المغرب إذ ذاك والله ينصر مولاي عبد العزيز يعني ولد مولاي الحسن، فجعل سيدي الطيب يده على صرة نفسه ثم قال له والله ما ننصره إلا إذا كانت لحيته هكذا وأشار بيده مديرا لها حول حنكيه ثم أخذ سيدي الطيب بيد تانسفت الحاكي المذكور وخرج به إلى أن وصلا إلى زبالة هناك يسمونها البدوزة مرتفعة بالأزبال التي تلقى فيها فقال السيد الطيب للحاكي بعد أن أدارا وجهيهما إلى ناحية أبي الجعد: هذه بدوزة. وذاك الذي تراه ما هو؟ قال: قباب أبي الجعد سيدي محمد الشرقي وأولاده. ثم قال له السيد الطيب المذكور: أسيدي محمد. أتانسفت إذا أزيلت هذه البدوزة من هنا وتبنى جامعا ويقول المؤذن فوق صومعته. الله أكبر. فهي أيام مولاي عبد العزيز.

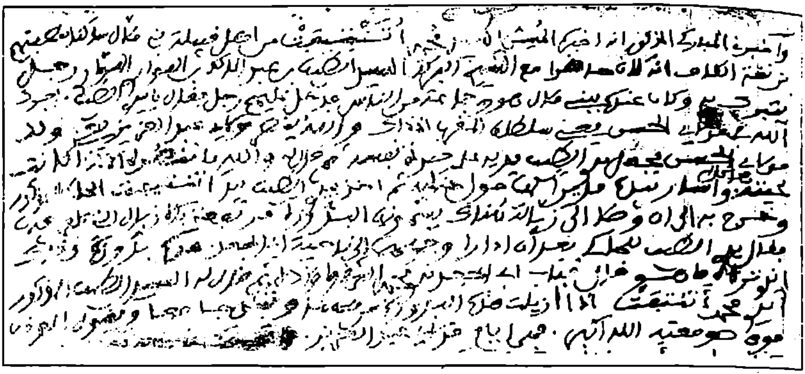

ثانيا: لأن المنبهي أصبح أبرز شخصية مؤثرة ظهرت على مسرح السياسة المغربية بعد وفاة الوزير أحمد بن موسى، وأكثر رجال الحاشية قربا من الملك الشاب وأشدهم استحواذا على قلبه وعقله، فقد وافق هواه ببشاشته ورقته وبعده عن تزمت العلماء وتحفظ الوجهاء، جارى –أحب أم أبى– الملك الشاب في طيشه وشاركه في خلواته ونزواته، ومن المؤسف أننا لا نملك تفاصيل عن الحياة في القصر الملكي في ذلك العصر لان الكتاب والمؤرخين على ندرتهم لم ينتبهوا أو لم يروا من المفيد أو من اللائق أن يدونوها ويطلعونا عليها فكان ما وجدناه متفرقا في كتب الأجانب عبارة عن أوصاف عامة وصور معيبة وأحكام قاسية.

ثالثا: لأن في عهد المنبهي اشتعلت أكبر ثورة قسمت البلاد وأظهرت عجز الدولة عن مقاومة أي فتنة أو القضاء على أي عصيان فهذا بوحمارة يستغل مؤازرة حليفه بوعمامة فيبسط سيطرته على المغرب الشرقي ويحتل مدينة وجدة.

ثم يستمر مسلسل الثورات بظهور حركة الشريف مولاي أحمد الريسوني في شمال المغرب، ومن ذيول هذه الأحداث قتل العامة بمراكش الطبيب موشان مما أدى إلى أن تضرب فرنسا مدينة الدار البيضاء وتحتلها سنة 1325هـ 19 مارس1907 ثم تواكبت الأحداث وتراكمت إلى أن أفضت

إلى توقيع معاهدة الحماية مع الدولة الفرنسية سنة 1912.

وأخيرا فإن المؤرخ الباحث إذا حاول أن يلقي الأضواء على مشاكل المغرب الداخلية والخارجية – في هذه الفترة الزمنية– من خلال دراسة شخصية من شخصياتها فلن يجد بديلا عن شخصية وزير الحربية المهدي المنبهي. لماذا؟ لسبب فريد في بابه وحيد من نوعه لا أملك أن أزيد عليه ولا حيلة عندي في أن أضيف إليه: وهو أن المهدي خريج مدرسة الصدر أحمد بن موسى ووارث سره وسياستيه والمغترف من دهائه والسائر على نهجه وطريقته، ولو أن الأحداث تدل على أن الفرق بينهما كان شاسعا والفرق في عهديهما كان جليا واضحا لسبب بسيط هو أن الأستاذ كان حكمه مطلقا بينما وجد التلميذ أن على رأسه ملكا من المفروض طاعته ومن الواجب مسايرته ومداراته خصوصا وأنه حديث عهد بممارسة السلطة بعد تحرره من حجر الوزير الأول.

والخلاصة أن فترة ما بين موت الحسن الأول وتوقيع عهد الحماية لا زالت أسرارها محجوبة عن أعين المؤرخين الباحثين . وليست دراسة شخصية كالمهدي المنبهي إلا كوة في جدار يمكن أن نرى منها ما كان يجري في الساحة أو بعضه آملين أن تكشف الوثائق والمستندات يوما ما عن حقيقة الأوضاع فتعطينا بعض التفسيرات والتوضيحات لما يتبادر إلى أذهاننا من أسئلة وتمدنا بالأجوبة المقنعة على الفرضيات التي نطرحها على القارئ دون أن نملك الدليل المادي الذي يدعمها ولا البرهان القوي الذي يخرج بها من طور الاحتمال أو الرجحان إلى درجة الظن أو الإيقان.

الصديق الروندة

حقبة قاتمة من تاريخ المغرب:

تجتاز بعض الدول فترات عصيبة من تاريخها، فتتناوبها الأزمات، وتتداولها التقلبات، وتعمها القلاقل والثورات، إلى درجة – كما وقع في المغرب– تنقلب فيها المفاهيم، وتذوب في بركانها كافة المعايير، وتنعدم من حساباتها كل المقاييس، فلا تعود المسببات مرتبطة بأسبابها، ولا النتائج بمقدماتها.

وقد عرف المغرب في مستهل هذا القرن أزمات[1] لم يسبق له أن عرف مثيلا لها في ماضيه، سواء فيما يتعلق بالثورات التي قادها مستغلو الوضعية الضعيفة، والسلطة الواهية المحدودة، التي اتسم بها سلاطين هذه الفترة ومساعدوهم من رجال المخزن، أو ما يرتبط بالأيادي الأجنبية الظاهرة منها والخفية، التي كانت تسعى لضمان مصالحها، وتحقيق أطماعها، بالدس والتفرقة والتحريض على الثورة، وهاته الدول هي فرنسا وأسبانيا وألمانيا وإنجلترا.

ويتبين للدارس الباحث أن مخلفات تلك الفترة، وقد أوشك أن يمضي عليها قرن لازال المغرب إلى الآن لم يتخلص من عواقبها، ولم يتحرر مما أحدثته في جسمه من شروخ، ولم يلتئم ما أصابه خلالها من جروح. مما جعل الزمن يمضي والتخلف يشتد ويستشري.

1- الأزمات المغربية: من كتاب التاريخ للباكالوريا تأليف بيير سيري ص 76 طبعة عام 1955 نشر بوردامن:

((كانت فرنسا تريد أن تكون في المغرب لتكمل سيطرتها على شمال إفريقيا، ومن أجل ذلك عقدت اتفاقيات مع إيطاليا وإنجلترا وإسبانيا، أما ألمانيا فقد كانت تريد أن تجعل مسألة المغرب قضية مساومة، في 31 مارس 1905 زار الإمبراطور غليوم طنجة مؤكدا ومعززا استقلال المغرب، وزادت ألمانيا من ضغوطها على فرنسا طالبة تنحية رئيس دبلوماسيتها السيد ديلكاسي الذي لم يجد بدا من تقديم استقالته في 6/6/1905 وفي أبريل 1906 انعقد مؤتمر الجزيرة، وفيه نجحت فرنسا في إقرار مشروعها القاضي بإقامة شرطة فرنسية إسبانية في الموانئ المغربية. ثم توالت الأحداث بنشوء اضطرابات جرت تدخلات مسلحة فرنسية.

وفي سنة 1911 سلكت ألمانيا طريق المواجهة فأرسلت إلى أكادير بارجة حربية "بانتير" إلا أن فرنسا وإنجلترا لم تكونا مستعدتين للدخول في صراع مسلح ففتح رئيس الديبلوماسية الفرنسية السيد كايو مباحثات مع الألمان انتهت بعقد اتفاقية "المغرب – الكونغو" في 1911/11/4 يعترف بمقتضاها لفرنسا بحمايتها للمغرب مقابل تنازلها لألمانيا عن الكونغو.

وفي 12 مارس 1912 وقع المغرب وفرنسا عقد الحماية)).

المهدي ابن قبيلة المنابهة :

ولد المهدي في قبيلة المنابهة وهي إحدى قبائل الحوز التي تدين بالولاء الكامل والطاعة التامة للمخزن كان أبوه قائدها وبعد وفاته التحق المهدي بمراكش ليشبع رغباته ويحقق طموحه.

كان المهدي بالإضافة إلى طول قامته ووسامة وجهه وجمال صورته مثالا في أناقته، ذا طلعة بشوشة وسحنة مقبولة يجذب من يتعرف عليه بابتسامته وطلاوة حديثه ووداعته ومرونته.

المهدي يلتحق بمراكش :

في هذا الجو المشحون بالمؤامرات الحافل بالمغامرات والثورات رمى القدر بالمهدي إلى مراكش، عاصمة الدولة ومصدر السلطة، ليس له ما يساعده على تحقيق مطامحه إلا ذكاؤه وجاذبيته وصبره. درس ما يجري حوله فوجد أن المناصب لا تسند لعلم غزير، أو مال وفير، ولا لجاه مكتسب، أو منصب موروث، بقدر ما يعتمد في التعيين لها، والارتقاء في مدارجها، على الفرص المنتزهة، والسلوكيات المواربة، والمواقف المداهنة؛ وقناعته باستنتاجاته، قادته إلى التربص، واقتناص الفرصة كلما سنحت، وصيد النهزة كلما عرضت.

تقلد في البداية منصبا بسيطا فأصبح مخزنيا بالقصر الملكي، ثم تسرب ليعمل بداخله، فارتقى إلى قائد الفراش، وهي وظيفة تقرب صاحبها من الملك، لأن مفاتيح الخزائن المولوية تكون تحت يده، يعمل تحت إمرته مكلفون بتنظيف الأماكن الخاصة بالسلطان وتفريشها، ويضاف إلى هذه الخنطة مسؤولية الحلاق والموقت وصاحب السجادة، كما أن على القائد العهدة في الأثقال الخاصة بالسلطان وحرمه في الأسفار. استطاع بذكائه أن يكسب محبة من في داخل القصر وحاشية السلطان القائم المولى الحسن، والفتى الملك المنتظر مولاي عبد العزيز، وقد كان أثيرا عند والده لا يفارقه في حله وترحاله ويضرب له في "المحلة" خباء بجانب خيمته.

ها نحن نراه يقوم بواجباته، ويؤدي "خدمات قائد الفراش" داخل القصر الملكي بتدبير محكم، وحزم ظاهر، وإنجاز سريع، مع دماثة خلق، ولين في السلوك، مما لفت الأنظار إليه، فكسب عطف أم الصبي عبد العزيز، وقد كانت شركسية أهداها الخليفة العثماني للجالس على عرش المغرب المولى الحسن، فمن الطبيعي وقد انتقلت من محيطها إلى محيط غريب عنها أن تحاول تثبيت قدمها، وأن تعمل – وقد رزقت بولد – على أن تجد الأعوان والأنصار ليخلف أباه على العرش، واستطاع المهدي بلباقته وكياسته أن يجذب الصبي إليه، ويكسب محبته، فجاراه في ميوله، وعمل على إرضاء رغباته، وتحقيق شهواته.

وتقرب المهدي من باحماد رجل الدولة القوي، وتمكن بأسلوبه من أن يستحوذ على لبه، فألحقه بخاصته، فصار مساعده الأيمن لا يستغني عن خدماته، يسند إليه المهمات الشائكة فيقوم بها أحسن قيام، لا يستصعب أمرا، ولا يقول لا أبدا. إنه كسب ثمين أن يفوز المرء بثقة الرجل الأول بعد الملك في الهرم المخزني.

كان المهدي على علم بميول الوزير الحاجب، وأنها تتجه إلى تنصيب الصبي على العرش متى وافت المنية الجالس عليه، ليبقى مسيطرا على دواليب الدولة، مهيمنا على زمام السلطة فيها، محكما قبضته على إدارتها، مديرا دفة سياستها في الداخل والخارج : فساير أم الصبي ووزير أبيه الوفي في اتجاههما، مبديا اقتناعه بنواياهما، ومناصرته لخططهما، مستغلا مساندتهما لكسب المعارف، والتوغل إلى داخل الجهاز التنفيذي، وربح الأصدقاء والأنصار، وإسقاط الكلفة مع الموظفين الكبار، فهو بعد وفاة مولاي الحسن يرقى من رتبة قائد إلى صفوف عمداء الدولة المرموقين وخدام المخزن المخلصين.

قبل الخوض بتفصيل في حياة هذا الرجل ينبغي أن نشير إلى ظهير عزيزي يعطينا فكرة عن المهمة التي كانت موكولة إلى المهدي قبل أن يصير الساعد الأيمن للصدر الأعظم.

الحمد لله وحده
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

خديمنا الأرضى القائد المنبهي وفقك الله وسلام الله عليك ورحمة الله. وبعد: فما كنا أمرناكم بدفعه من الدراهم والشعير مياومة مئونة للمحلة السعيدة المخيمة بالقيهرة قد اعمل الحساب فيه مع الأمين المكلف بحوز ذلك منكم لمحله ليظهر القائم منكم بالواجب في الدفع من المتكاسل فيه فاجتمع على من إلى نظرك من سكساوة في مدة من تسعين يوما وآخرها 28 رجب ثلاثمائة ريال وستون ريالا ومن الشعير مائة مد وتسعة وستون مدا فنأمرك بدفع ذلك لمحله عاجلا عزما مع ما ترتب عليهم في ذلك من التاريخ المذكور للآن ولتقم على ساق الجد استقبالا في دفع واجب كل يوم في يومه طبق ما كنا أمرناكم به والسلام.

في فاتح رمضان المعظم عام 1314هـ.

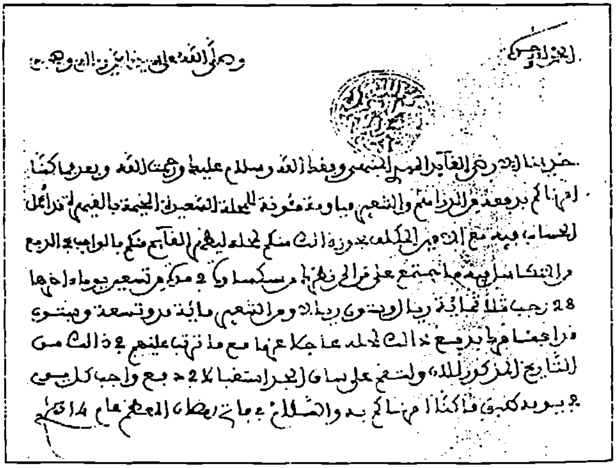

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

خديمنا الأرضى القائد المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فيما كنا
أمرناكم بدفعه من الدراهم والشعير مياومة مئونة للمحلة السعيدة المخيمة بالقيهرة قد أعمل
الحساب فيه مع الأمين المكلف بحوز ذلك منكم لمحله ليظهر القائم منكم بالواجب في الدفع
من المتكاسل فيه فاجتمع على من إلى نظرك من سكساوة في مدة من تسعين يوما آخرها
28 رجب ثلاثمائة ريال وستون ريالا ومن الشعير مائة مد وتسعة وستون
مدا فنأمرك بدفع ذلك لمحله عاجلا عزما مع ما ترتب عليهم في ذلك من
التاريخ المذكور للآن ولتقم على ساق الجد استقبالا في دفع واجب كل يوم
في يومه طبق ما كنا أمرناكم به والسلام في فاتح رمضان المعظم عام 1314

يستفاد من هذا الظهير أن المهدي التحق بعد تقلد المولى عبد العزيز الملك بالمحلة السعيدة مكلفا بتموينها، كقائد على فرقة مؤلفة من شرذمة من سكساوة، وهو ولاشك منصب لا يسند إلا لمن يكون جديرا بالثقة لإخلاصه وولائه وقدرته على المحافظة على أمن القصر وسلامة الملك وحاشيته.

ولعل هذه الأوامر الصادرة عن الصدر الأعظم الحاملة لطابع الملك مما يجعلها بمثابة ظهير كانت محكا للرجل على التنفيذ، واختبارا لكفاءته في الإدارة وامتحانا له في التطبيق الحرفي للتعليمات المخزنية.

ولا شك أن المهدي قد برهن وهو على رأس فرقته عن انضباط وحزم وحسن تسيير مما لفت نظر الصدر الأعظم إلى كفاءته ، وأكسبه – بعد أن قربه وعجم عوده – ثقته الكاملة ، فصار المؤتمن على أسراره ، المنفذ لأوامره المعول عليه في تصرفاته وإنجاز مهامه.

ولقد استندنا أيضا فيما قدمناه عن هذا الوزير إلى شهادة خطية سجلها احد العاملين بديوان رجل الدولة القوي في ذلك العهد: " الوزير الصدر" أحمد بن موسى بن أحمد البخاري بدولة المولى عبدالعزيز.

وجدت في كناشة للسيد محمد الروندة قاضي الرباط ثم وزير العدلية والمعارف الإسلامية في عهد المولى يوسف ومحمد الخامس تغمدهم الله برحمته حديثا مثيرا عن هذا المخزني الطموح حيث كتب:

الحمد لله وحده وصلى الله تعالى وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله.

– المهدي المنبهي وزير مولاي عبد العزيز هو المهدي بن العربي المنبهي من قبيلة المناهبة قرب مراكش من قبائل الجيش[1]، كان خليفة عن قائدهم أخيه القائد حميدة ، ثم لما كبر عياد ولد القائد استخلفه وأخر المهدي ثم مات القائد فخلفه

[1]- ينبني كيان المخزن في المغرب على أربع ركائز ممثلة في قبائل الجيش وهي:

شراكة والأوداية والبخارة والشراردة، فهذه القبائل هي قاعدة الجيش والجهاز الاحتياطي في الإدارة، وهذا النظام نوع من الأرستقراطية العسكرية والإدارية تتمثل في محاربين وموظفين يتوارثون مهامهم أبا عن جد في ظل ورهن إشارة إدارة المخزن المركزي، ويتمتع رجال هذه القبائل في المقابل بالإعفاء من الضرائب عن الأراضي المقتطعة لصالحهم في النواحي المجاورة للمدن السلطانية الأربعة: فاس ومكناس ومراكش والرباط بالإضافة إلى مدينتي العرائش وطنجة. فهم أول من يقع تجنيدهم، فيمدون الملك بعشرة آلاف فرس جاهزة، وبمجرد ما تنتهي الحركة (الحملة العسكرية) يقع تسريحهم ويرجعون إلى منازلهم ما عدا الذين يشغلون مناصب إدارية في الحرس الشريفي أو في العسة الملحقة بعمال المدن أو بمراكز مراقبة القبائل الفوضوية المشاغبة.

ولده عياد في قيادة المنابهة ، وكان له ثروة فصار المهدي يخوض في القبيلة ليدير وجههم عن عياد قائدهم فسجن المهدي مدة ثم سرح وصار مع أهل فراش مولانا الحسن السلطان وبقي على فعله في القبيلة قبله فاشتراه عياد فسجنه مرة أخرى بفاس منقولا إليها إبعادا له عن القبيلة ثم سرح وعين أحد المخازنية مع مولاي عمر بن مولاي الحسن فصار يريه طرق الفساد والخمر فقبض عليه عبد الكريم ولد أب محمد الشرقي نائب أبيه في قيادة فاس الجديد ثم سرح.

فلما توفي السلطان مولاي الحس وبويع بفاس لولده مولاي عبد العزيز وجاء الطبالون لتهنئة الخليفة مولاي عمر مزق المهدي طبولهم وضربهم فسجن وأبعد لسجن العرائش فلما وصل مولانا عبد العزيز إلى مراكش مات القائد عياد فاشترى المهدي قيادة إخوانه المنابهة فتولى عليهم فلما وصل مولانا عبد العزيز إلى مراكش استولى المهدي على وزيره السيد أحمد بن موسى بن أحمد البخاري وظهر له في طاعة كبيرة فصار الوزير يوليه على بعض القبائل بحوز مراكش زيادة على المنابهة كشيشاوة ونميمة ود مسيرة وغيرها فكان لا يركب الوزير إلا وجد ببابه المهدي راكبا بغلته كأحد مخازنيته بحيث كان لا يصدر أوامر المخزنية كثيرا إلا بواسطته ومكنه من عزباته وسائر شؤونه وكان المهدي مهما أمره الوزير أحمد بشيء لا يقول: لا، ولا يستحيل شيئا ولا يستصعب صعبا أصلا،فلما توفي السيد سعيد أخو الوزير أحمد وكان متوليا خطة تموين الجيوش كلها ويقال له إذذاك :"العلاف " جعل أحمد المهدي نائبا في محل أخيه المذكور زيادة على ولاياته قياداته، فلما توفي أحمد بقرب ذلك اجتمع أهل المخزن وأعيانهم بدار المخزن متوقفين في إخبار السلطان مولاي عبد العزيز بموت وزيره أحمد الذي كان مستوليا عليه وسادا بوجهه أبوابه كلها بحيث كان لا يتصارف مع أحد غيره فتعجل المهدي وطلب ملاقاة السلطان فدخل عليه فوجده فزعا مبهوتا مرعوبا متحيرا فعزاه وسلاه وأزال دهشته وحيرته ومما يحكى أنه قال له : إن كلمة سيدنا بمنزلة الروح في الجسد وأنه إذا نفخ على حبل صيره ثعبانا وأشار عليه بالخروج بنفسه وحضوره جنازة أحمد ففعل فلما رجع من دفنه قال للسلطان: إن الأموال التي عند أحمد ليس عند سيدنا السلطان بالنسبة إليها إلا نزر يسير وحرضه على تتريكه فأمره بذلك، فقرب إليه الشيخ التازي أمين صوائر دار المخزن ومن مقربي

أحمد، ثم مدوا أيديهم في صورة أمناء التتريك هو والشيخ وأمناء البنيقة المراكشية عبد الوهاب التازي وعبد الله غنام الرباطي ومحتسب مراكش إذ ذاك وأحد أخصاء الوزير أحمد السيد محمد بن عبد الهادي زنيبر السلاوي فابتلعوا تلك الأموال الطائلة وما احتوت عليه من نفائس الأحجار والحلي والذهبان والأمتعة ما لا يدخل تحت الحساب وربما وجهوا للسلطان بعض شيء فضل عنهم مظهرين أن لا شيء من متخلف الوزير سواه وخاضوا في ذلك شهورا كثيرة ولى السلطان في أثنائها السيد المختار بن عبد الله بن أحمد ابن عم الوزير المذكور وكان ضعيف الإرادة لم يقدر على مقاومة حيل المهدي فاستعفى ثم ولى بعده الفقيه السيد فضول بن محمد غريط الذي كان وزير الخارجية مدة السلطان مولانا الحسن وبعض مدة أوائل أيام مولاي عبد العزيز قبيل تمكن أحمد، فلما تولى الصدارة أشار على السلطان مولاي عبد العزيز بتوجيه المهدي سفيرا إلى انجلترا وزين ذلك للمهدي أي تزيين فذهب لذلك وترك نائبا عنه في وظيفة العلافة الشيخ التازي وأكد عليه أن يكون يطلعه على كل شيء وخصوصا الأمور المخزنية، فبدأ الوزير غريط فاتحة أعماله بالقبض على القائد عيسى بن عمر العبدي أحد قواد قبيلة عبدة وأركان قوة المهدي المذكور وكتب رسميا لأمناء مرسى آسفي بتتريك داره قرب أسفي فذهب الأمناء والعدول فوجدوا فيها من الأثاث والحلي والأمور ما لا يكيف حتى باع المخازنية وأصحاب الأمناء بأسفي الأثاث الرفيعة بأقل من ثمن قيمتها واسترسل الإمضاء في ذلك أزيد من شهر فلما رجع المنبهي من وجهته كما سيأتي استشفع فيه للسلطان فسرحه وكتب للأمناء أن يردوا إليه داره و أمتعته و سائر ما أحصوه فلما جاء ولده أحمد عند الأمناء بالمرسى ودفع لهم ظهير الأمر بكف الإحصاء ورد ما أخذ، أخذهم رعب شديد فقال له الأمين الفاسي: تعلم أن الإحصاء عند مقيد بأوراق الوسخ فلابد لنا من مهلة نرتب فيها ذلك ونرد لكم كل شيء طبق الإحصاء فقال الولد أحمد لعدول أمناء المرسى: اشهدا علي أن هؤلاء الأمناء إن مكنوني بمفاتيح الدار من الآن فهم برآء من كل ما يرجع لذلك الإحصاء و لا أتبعهم و لا غيرهم بشيء من ذلك أو غيره فقال الأمناء لأولئك العدول: تكتبون لنا هذه الشهادة كما سمعتم ؟ فقالوا: نعم . فأخرجوا المفاتيح ودفعوها لأحمد وذهب لحال سبيله وفاز كل بما أخذ.

رجع إلى قضية المهدي: فلما أخبره الشيخ كتابة لإنجلترا بالقبض على عيسى بن عمر أحس المهدي بالشر فأخفي وقت رجوعه وقطع أخباره . فكتب الصدر غريط إلى قائد الجديدة إذ ذاك وهو السيد محمد بن الحمدونية يأمره رسميا أو بظهير بالقبض على المهدي عند نزوله بالجديدة راجعا من إنجلترا وكان الصدر قد أشاع خبر عزل المهدي وأنه يقبض أو شيع ذلك من غيره، إلا أنه أبقى دار المهدي على ما هي عليه من أمنائها وحجابها وبوية كانت مفتوحة سرا بينه وبين دار السلطان يدخل المهدي منها عند السلطان ليلا أو نهارا متى اقتضى الحال ذلك، ولكن أخرجوا كل من كان من قبيلة المنابهة حتى مخازنيتهم من الوظائف المخزنية وأخذوا ما كان عندهم من المكاحل والسيوف التي تكون بيد كل مخزني بذلك الوقت. فلما نزل المهدي بمرسى الجديدة وجد ابن الحمدونية هيأ دارا داخل المدينة لنزوله وكأنه ليتمكن من القبض عليه بها وتظاهر بذلك فقط لعلمه بمكر المهدي وتمكنه من السلطان فلما طلب من المهدي الدخول للدار أجابه بأن به دوخة البحر ولا يقدر على ذلك فورا، وطلب منه أن ينزل بخزائن كتان مخزنية كانت بشاطئ البحر ريثما يتفرق الناس المتلقون له ، فغفل أو تغافل ابن الحمدونية وذهب لداره. فلما قرب العشاء ركب المهدي على فرسه في بعض الفرسان المتلقين له فبات ساريا وظل كذلك فدخل في نصف الليل لمراكش ودخل على السلطان من بويبته المذكورة التي كان يتعين على مريد قبضه أن يغلقها ويزيل أولئك البوابة والحجاب الذي يعرفون المهدي ويغلقها أو ينزل بها من لا يعرفه أو يقبض عليه، فإن الطير إذا شتت عشه لا يدري ما يصنع ، فقابله السلطان واشتكى عليه وبالغ في مكره معه إلى أن أصبح كيوم ذهب أو أشد فبهت الناس: غريط وغيره ثم استولى على السلطان.

وكان مما عمله غريط في سفر المهدي: وجه السلطان على عامل تطاون القائد إدريس بن يعيش البخاري وولاه قيادة المشور والمشاورية ليتقوى به غريط فلما أصبح المهدي بعد رجوعه في وظيفه بينما ابن يعيش بدار المخزن إذ أقبل المهدي في كوكبة من الخيل فصار ابن يعيش يتسخط ويتظاهر بعدم المبالاة واتفق أن كان جالسا معه رجل من البواخر يقال له السيد أحمد بن عبد الرحمن وكان عاقلا فبقي على ابن عيش يهون عليه أمر المهدي ويصوب له فكرة مجاملته إلى أن وصل

المهدي فقام له ابن يعيش وتعانقا وقال له المهدي: إني فرحت له فرحا شديدا لأن ابن يعيش كان منفيا من قيادة المشور قبل، ثم وجه له المهدي هدايا كثيرة ليتعاضد معه على مناوئيه وبقيا على ذلك إلى أن....

المناخ السياسي في عهد المولى عبد العزيز

المهدي يقفز إلى الصف الأول :

بعد وفاة المولى الحسن خلفه على عرش المملكة ابنه عبد العزيز، وكان فتى صغيرا لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره.

تولى دفة الحكم في البلاد حاجب أبيه باحماد المكنى بأبي العباس. وكان خبيرا في شؤون الدولة داهية في السياسة أخذ بزمام السلطة ووقف سدا منيعا في وجه الدول الطامعة وعرف كيف يحافظ على التوازن في علاقات المغرب معها، أما الملك الفتى فقد كان يعيش على الهامش داخل قصره منصرفا إلى لعبه ولهوه.

كان سبب تولية باحماد الحجابة أنه لما توفي أبوه أبو عمران موسى بن أحمد حضر الملك الحسن الأول جنازته بنفسه وذهب راجلا في وسط المشيعين من داره إلى مدفنه، ولما كان قائما على شفير قبره طلب منه عمه المولى سليمان ترشيح ابن المتوفى أحمد بن موسى لوظيف والده رعيا لمكانته وألح عليه في ذلك فقوبل اقتراحه بالتلبية.

ولما توفي باحماد لم يجرؤ أحد أن ينقل خبر وفاته إلى الملك، لأنه كان غريب الأطوار، حاد المزاج، لا يستقر رأيه على قرار، يتقلب في تعليماته، ويتحرك من منطلق نزواته، وكان يصعب على وزرائه أن يفاتحوه في أمر، أو يعالجوا معه شؤون الدولة، فلا يتوصلون إلى أخذ نظره، وتلقي قراراته، إلا بواسطة اللين مع اختيار الوقت المناسب.

اغتنم المهدي الفرصة وتجرأ فدخل عليه، فوجده فزعا متحيرا، فاستعمل مهارته ولباقته في تعزيته وتسليته وإزالة دهشته، وأشار عليه بالخروج بذاته،

وحضوره بنفسه جنازة باحماد ففعل.

وتحت تأثير الأم عينه السلطان وزيرا للحربية "العلاف"، فأصبح ذا حظوة عنده يرافقه ويشاركه في حياته ومجونه.

وقد استغل المهدي مترلته عند المولى عبد العزيز فعمل على أن يتولى الوزارة الأولى "الصدارة" السيد فضول غريط، واختاره لأنه كان مسالما مهادنا، لئلا يكون حاجزا بينه وبين الملك، وكان مسنا ومشلولا من جانب، ونرى أن الوزير "الصدر"، الطيب الخير، سعى لعزل المهدي لما كان في انجلترا في سفارة دبرها له لإبعاده عن ساحته، مقابلا إحسانه بالإساءة، وجميله بالتنكر والوقيعة.

وهكذا نجد أن المهدي تصدر الصف الأول وهو دون الثلاثين من عمره، واحتل الطليعة في هاته الحقبة الحرجة من تاريخ المغرب، التي ظهر على مسرحها أناس ما كان لهم أن يظهروا لو كانت الأمور تأخذ مسارها الطبيعي، كما اختفى آخرون ما كانت شمعتهم لتنطفئ لو كان الجهاز سليما والتدبير عادلا وحكيما.

ميول المنبهي السياسية :

لم تكن للمغرب في هاته الحقبة خطة سياسية مدروسة، أو اتجاهات خارجية، ومواقف معينة، يشملها مخطط حكومي ثابت، بل كل ما كان هناك هو الولاء للمخزن، والامتثال لأوامره، وتلبية رغباته، والعمل على حمايته، والدفاع عن نفوذه وسلطته على رعيته، وسيادته على ترابه.

لذا لا يمكننا أن نتحدث عن سياسة معتمدة مبنية على قواعد ثابتة، ذات أهداف معينة، فالأوضاع الداخلية تزداد تدهورا يوما بعد يوم، والأيادي الخفية الأجنبية تتحرك علانية، وتفرض وجهة نظرها بالضغط تارة،

وبالتهديد تارة أخرى، لذا نجد أن سياسة حكومة المخزن تحاك حسب ما تمليه الظروف المستجدة، ووفقا للميول والمفاهيم والأغراض الشخصية.

نعم لقد كان للدول التي لها أطماع في المغرب رجال تستميلهم لترجيح كفتها، ولنقل آرائها إلى السلطان خاصة، والدفاع عن مصالحها لدى المخزن عامة، فالملك وإن كان لا يتمتع بسلطة مطلقة على ترابه، فهو على الأقل يملكها داخل "مخزنه" والأحداث التي واكبت هذه الحقبة شاهدة على ذلك.

فعكس وزير الخارجية السيد عبد الكريم بنسليمان الذي كان يميل إلى فرنسا، نجد أن المهدي المنبهي قد وقع تحت تأثير الطرف البريطاني، فانحاز إلى جانبه، وأضحى المعبر عن آرائه، المومن بالاعتماد عليه. ويرجع هذا الاختيار إلى سببين:

أولهما : أن مساندة فرنسا أو انجلترا ضرورية لمن يستلم مركزا مهما في الدولة، فالمغرب يعيش أزمة تتمثل في كثرة الاضطرابات وتعدد الثورات، واحتياج دائم إلى المال والسلاح، فهناك منافسة بين الدولتين لإثقال كاهل المغرب بالقروض ومبيعات الأسلحة والذخيرة، ثم تدخل آخر وهذه المرة في الجيش المغربي نفسه، بدعوى تنظيمه وتدريبه على استعمال المعدات المستوردة.

يرى المهدي أن المغرب يجب أن يتجه صوب انجلترا فهي دولة ملكية وصاحبة جبل طارق يمكنها أن تقف في وجه الأطماع الأسبانية وأن تتعامل مع المصالح الفرنسية مما يكسب المغرب حماية من جارتيه ومناعة في حدوده معهما. وهو رأي لا يخلو من حصافة في وقت ما فتئ فيه النفوذ الفرنسي يتقوى ويزداد.

وقد حاول المهدي أن يكون لإنجلترا حضور في مد السكك الحديدية، وتحسين طرق المواصلات وإصلاح الموانئ والجمارك، لأن ذلك يوافق تطلعه

إلى أن يصير المغرب دولة عصرية، فقد كانت له تصورات "وهمية جامحة" يحلم بأن يراها تتحقق في بلده، كما أن ما رآه في أوربا أثناء زيارته لإنجلترا كان هاجسه الذي يراود خياله، لكن فرنسا أحبطت بمناوراتها وبفضل عملائها جميع مخططاته الإنجليزية.

ثانيهما : سبب يرجع إلى تكوينه الطبيعي فقد كان يشبه الانجليز في برودة أعصابه وليونة طبعه وتحليه بالصبر في الترقب، وطول نفس في الانتظار، مع لباقة في الحديث، وكياسة في السلوك والمعاملات، فقد كان جنتلمانا في الوسط الحكومي.

– سفارة المنبهي إلى انجلترا :

ذكر محمد الروندة في كناشته :

"فلما تولى فضول بن محمد غريط الصدارة أشار على السلطان مولاي عبد العزيز بتوجيه المهدي سفيرا إلى إنجلترا، وزين ذلك للمهدي أي تزيين".

فقد كان غريط يهدف إلى التخلص من المهدي لأن له دالة عليه، فقد تقدم أنه هو الذي سعى ليكون فضول صدرا.

وعن هاته الرحلة تحدثنا المراجع الفرنسية عن الهدف من هاته السفارة :

"في يونيه 1901 توجه المنبهي إلى انجلترا ليقدم إلى إدوارد السابع تهانئ السلطان بمناسبة جلوسه على العرش من جهة، وليحتج من جهة أخرى في لندن وبرلين على احتلال الجيش الفرنسي لتوات، ويطلب تأييد المغرب ودعمه ضد فرنسا. وفي أثناء غيابه تحرك خصومه في مراكش – وكانت مهمته لم تكلل بالنجاح المؤمل – فتوصلوا إلى القضاء على نفوذه، ووضع حد لمأموريته، بموافقة المولى عبد العزيز على تنحيته والاستغناء عنه".

ويذكر لنا محمد الروندة كيف أفشل المهدي خطة خصومه، وعلى رأسهم الصدر، ويصورها لنا كشريط سينمائي، من يوم وضع المنبهي قدمه على أرض الجديدة إلى أن دخل على السلطان من بويبة كانت تفضي من داره إلى القصر، وكيف اشتكى عليه وبالغ في مكره معه إلى أن أصبح كيوم ذهب أو أشد، فبهت الناس : غريط وغيره، ثم استولى على السلطان.

– سياسته :

كان لا يلجأ إلى القوة إلا بعد أن يستنفد الوسائل السلمية، كإغراء الثوار بالمناصب والأموال، وشراء الضمائر إن اقتضى الحال، ثم هو يسالم من هادنه، ويجامل من قاربه، ويداهن من تظاهر بمودته ويتغاضى عن سابق سيئاته وعداوته. ونستدل على ذلك بما سجله محمد الروندة في كناشته : "وكان مما عمله في سفر المهدي، وجه السلطان على عامل تطاون القائد إدريس بن يعيش البخاري وولاه قيادة المشور والمشوارية، ليتقي به غريط، فلما أصبح المهدي بعد رجوعه في وظيفه، بينما ابن يعيش بدار المخزن إذ أقبل المهدي في كوكبة من الخيل، فصار ابن يعيش يتسخط ويتظاهر بعدم المبالاة، واتفق أن كان جالسا معه رجل من البواخر يقال له السيد أحمد بن عبد الرحمن وكان عاقلا، فبقي على ابن يعيش يهون عليه أمر المهدي ويصوب له فكرة مجاملته إلى أن وصل المهدي فقام له ابن يعيش وتعانقا، وقال له المهدي : إني فرحت له فرحا شديدا، لأن ابن يعيش كان منفيا من قيادة المشور قبل، ثم وجه له المهدي هدايا كثيرة ليتعاضد معه، على مناوئيه، وبقيا على ذلك إلى أن..."

وكان يعرف مدى السمعة التي يتمتع بها العلماء في الأوساط الحضرية والبدوية، ويعي أهمية الدور الذي يلعبونه في الأوساط المغربية وتأثيرهم البالغ في أذهان العامة في وقت اضطربت فيه شؤون المملكة وعرف بفوضى في

السياسة، وتعثر الأعمال وركود الأحوال وقلة الأموال. فكل خطة تفضي إلى الاستقرار – ولو مؤقتا – ينبغي الالتجاء إليها والأخذ بها، وكل وسيلة ترفع سمعة رجل الدولة وتنشر ذكره وتزكي أفعاله وأقواله، فرصة لا مناص من اقتناصها وتنفيذها.

– إيمانه بسلطان المال :

وقد كان المهدي يومن بسلطة المال وقوة تأثيره ومفعوله في استمالة القلوب وتخدير الضمائر واستعباد العقول والخواطر، لا بالنسبة للثوار فحسب بل لسائر الناس حتى العلماء منهم، ليضمن السلامة من نقدهم، ويفوز بعطفهم ومودتهم، لذا نراه يقحم نفسه فيما يخصهم من عطايا، وما تقدمه الدولة لهم من هدايا، فيكاتبهم ويستفسر عن أحوالهم المادية ويعمل على تنفيذ الهبات وتوزيع الصلات على مستحقيها من العلماء والقضاة.

وأمامنا رسالتان موجهتان إلى العلامة القاضي السيد عبد الله ابن خضراء السلاوي وهو من ذوي الحظوة الراسخة والمكانة الممتازة عند المولى عبد العزيز إحداهما يستفسره فيها عن العلماء الموجودين بالرباط وسلا، والثانية بإخباره بمبلغ الصلة وتكليفه بتوزيعها عليهم :

الحمد لله وحده

محبنا الأعز الأرضى الفقيه القاضي السيد عبد الله ابن خضراء رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله وبعد فقد توقف الغرض على عدد من بالعدوتين المحروستين من العلماء وبوصوله إليك بين أساميهم ووجههم لنا عاجلا ولابد وعلى المحبة والسلام، في 19 رمضان 1319 هـ.

المهدي بن العربي وفقه الله.

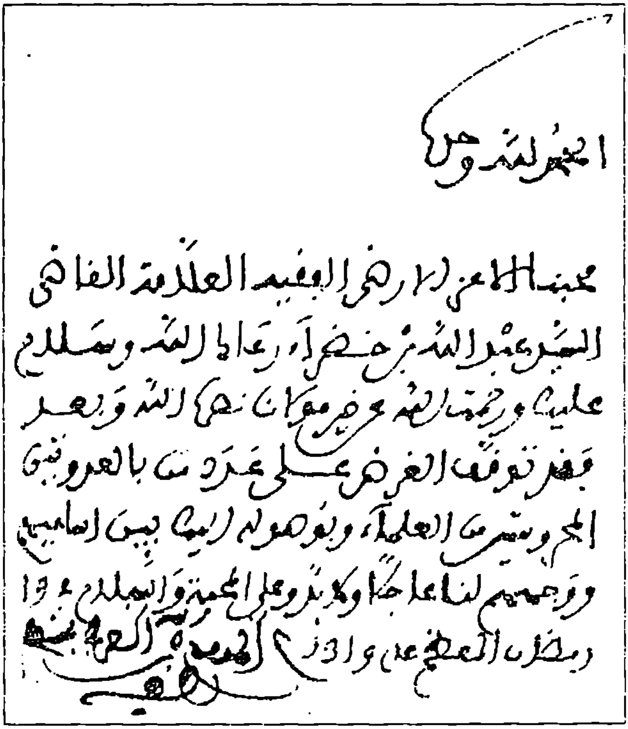
الحمد لله وحده

محبنا الأعز الأرضى الفقيه العلامة القاضي
السيد عبد الله بن خضراء رعاك الله وسلام
عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله وبعد
فقد توقف الغرض على عدد من بالعدوتين
المحروستين من العلماء وبوصوله إليك بين أساميهم
ووجههم لنا عاجلا ولابد وعلى المحبة والسلام في 19
رمضان المعظم عام 1319
المهدي بن العربي

الحمد لله وحده

محبنا الأعز الأرضى الفقيه العلامة القاضي السيد عبد الله ابن خضراء رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله وبعد وصلت بطاقتك جوابا عما تقدم لك في شأن الصلة التى أشرنا إليها وتوقفك فيما بينته وصرنا ببال فتصلك صحبته مائة وخمسون ريالا زيادة على الأولى ليقسط ذلك على العدوتين وفق ما قدمناه لك وعلى المحبة والسلام.

في 26 رمضان عام 1319هـ.

المهدي بن العربي وفقه الله.

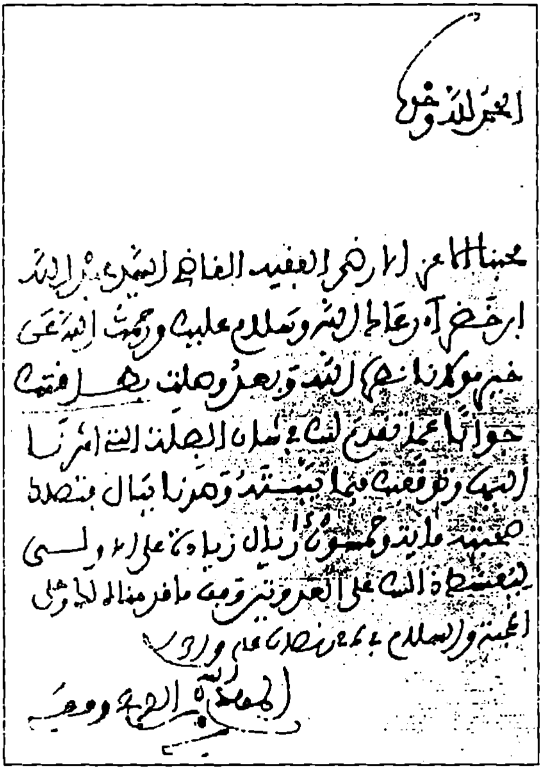
الحمد لله وحده
محبنا الاعز الارضى الفقيه القاضي السيد عبد الله
ابن خضراء رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله عن
خير مولانا نصره الله وبعد وصلت بطاقتك
جوابا عما تقدم لك في شان الصلة التي اشرنا
اليها وتوقفك فيما بينته وصرنا ببال فتصلك
صحبته مائة وخمسون ريالا زيادة على الاولى
ليقسط ذلك على العدوتين وفق ما قدمناه لك وعلى
المحبة والسلام في 26 رمضان عام 1319
المهدي بن العربي وفقه الله

– كما يتودد للعلماء ويتقرب للشرفاء :

ونجده يتودد للعلماء بتوديعهم إذا سافر وزيارتهم إذا حضر، ويظهر لهم أن اللوذ بهم غنيمة، والتقرب منهم فريضة، والاقتباس من نورهم فوز ونجاح والتزود بدعائمهم ربح وفلاح.

وتقديرا منه للدور الذي يلعبه الشرفاء في المغرب خصوصا منهم العلويين والوزانيين وتأثيرهم في الوسطين الشعبي والحكومي، فقد كان يتدخل لصالح المقربين والبارزين منهم. من ذلك تدخله لأحد أفراد الأسرة المالكة حتى يعمل اللازم في تصفية متروك زوجته، ومثله توصيته بإعادة النظر في قضية تنحية مولاي أحمد الوزاني عن نظارة أحباس وجدة.

الحمد لله وحده

محبنا الأعز الأرضى الفقيه العلامة القاضي السيد عبد الله ابن خضراء رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله وبعد فقد رفع أمره للجناب العالي بالله الشريف الأجل مولاي أحمد بن مولاي الطاهر الوزانى بأنه كان ناظرا على أحباس زاوية جده مولاي التهامي وأحباس دفينها سيدي الحاج الخياط بالشرشور من هذه الحضرة الإدريسية كما كان أبوه وجده ناظرين عليهما قبله حسبما بالموجب المشهود فيه له ولهم باستحقاقهم تولية النظر عليهما وسلم ذلك وامضي بما عليه من طوابع أسلاف سيدنا الأكرمين قدسهم الله وهاهو يوافيك لتطالعه. ثم إن بعض أقاربه من عنصر آخر قاموا عليه وسعوا في عزله وتولية رجل أجنبي عنهم يدعى الحاج بناصر الحلو ليتوصلوا لمرادهم من الأحباس المذكورة وأنهينا ذلك لسيدنا أيده الله فأمر أعزه الله بتحقيق ذلك والوقوف فيه على عين الحق واليقين وعليه فهل لإلغاء الموجب المشار إليه مع ما فيه من تجديد الشهادة بأهلية مولاي أحمد المذكور واستحقاقه لما ذكر وجه وطريق شرعي تسيغ نقض ما بيده وتولية الأجنبي المذكور مع أنه مريض ملازم للفراش منذ ولي أمر الزاوية المذكورة أم لا.

فلتجب رعاك الله بما أنتجه إمعان النظر في ذلك لنطلع به العلم الشريف أعزه الله وعلى المحبة والسلام في 21 محرم عام 1320.

المهدي المنبهي وفقه الله

الحمد لله وحده

محبنا الأعز الأرضى الفقيه العلامة القاضي السيد عبد الله ابن خضراء أمنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير سيدنا نصره الله وبعد فإن الشريف سيدي محمد بن عبد السلام بن إدريس بن مولاي سليمان قدسه الله طلب من الجناب المؤيد بالله أدام الله علاه مساعدته في قسم متروك زوجته الشريفة الصائرة إلى عفو الله وهي للا فاطمة بنت مولاي العربي بن الصديق رحمه الله وإعمال التوارث فيه بينه وبين باقي ورثتها ليتوصل كل ذي حق منهم فيه بحقه فساعده سيدنا أيده الله على ذلك ويأمرك أعزه الله أن تباشره بينهم وتجريه على ما تقتضيه الشريعة المطهرة وعلى المحبة والسلام في 21 محرم الحرام عام 1320.

المهدي بن العربي وفقه الله

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

محبنا الأعز الأرضى الفقيه العلامة القاضي السيد عبد الله ابن خضراء أمنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير سيدنا نصره الله وبعد فقد كنا عازمين على الملاقاة بكم بقصد الموادعة معكم واغتنام دعائكم الصالح والفوز بالاقتباس من نوركم اللائح فإذا به عاقنا عن ذلك التعجيل إلى ما نحن بصدده من التوجه لقضاء الغرض المولوي يسره الله

وقد جعلنا هذا نائبا عنا في ذلك طالبين منكم الوقوف فيما كنا أوصيناك به من إخراج اللطيف وزودونا بصالح الأدعية تقبل الله وقضى غرض سيدنا أيده الله بمنه وكرمه و على المحبة والسلام في صفر الخير عام 1321

المهدي بن العربي وفقه الله

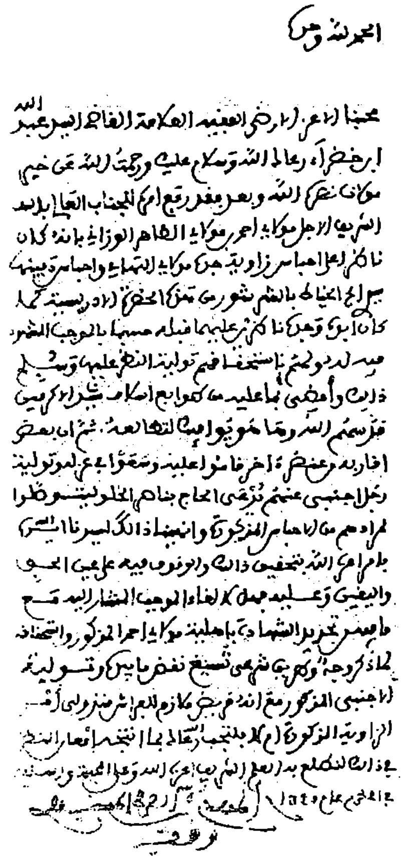

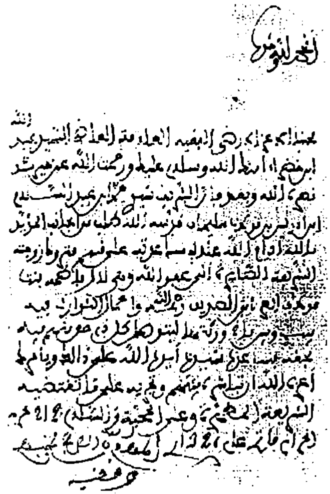

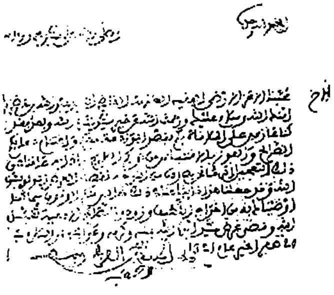

ترتيباته العسكرية وأعماله الحربية :

رغم تمرسه بالجندية والشهادة له بالشجاعة والفروسية، واطلاعه على التنظيمات العسكرية الغربية من خلال زيارته لأوربا، ومعرفته بالأسلحة التي كان يشتريها منها وخصوصا من الإنجليز، رغم ذلك كله لم يتمكن المهدي المنبهي من تحديث الجيش المغربي بتدريبه وتأطيره بخبراء أكفاء ينظمونه تنظيما عصريا يجعله قادرا على مواجهة الثورات والتصدي للهجمات والقضاء على أخطر ثائر على الدولة: الجيلاني الركي الملقب ببوحمارة.

ولعل السبب في ذلك أن الأحداث كانت متلاحقة ولم تكن بسيطة بل في معظمها خطيرة ومتفاقمة مما لم يترك للمهدي وقتا لإصلاح أوضاع الجيش وتطويره وتدريبه.

وكان أمر الثائر بوحمارة قد استفحل، وخطره قد تفاقم حتى أخذ يهدد مدينة فاس نفسها مدعيا أنه مولاي محمد أكبر أنجال السلطان الراحل مولاي الحسن.

وفي 1903/1/29 وبمساعدة قائد المشور السيد إدريس بن يعيش والسيد عبد الرحمن بن عبد الصدوق عامل مدينة فاس قاد المهدي المنبهي حملة عسكرية ضاربا فلول الثوار الذين كانوا يهددون – بقيادة زعيمهم بوحمارة – مدينة فاس، فهزمهم وتعقب آثارهم وأسر بعضهم وعلق أربعين رأسا من قتلاهم على مشارف باب محروق، واحتفلت فاس كلها أسبوعا كاملا بهذا النصر المبين ابتداء من 31 من نفس الشهر. وقد كانت هاته الحملة عبارة عن عملية خاطفة قصيرة الأمد غالبا أن المهدي اعتمد فيها عنصر المفاجأة وقصد منها أن يستعيد الجيش ثقته في قائده والسلطان عطفه على وزيره.

غير أن الملك عبد العزيز لم يكن راضيا بهاته النتيجة المحدودة فأمر وزيره بأن لا يمثل أمامه إلا بعد أن يقضي نهائيا على الثوار ويقبض على رئيسهم

بوحمارة.

كانت مدينة تازة أقرب موقع استراتيجي شديد الأهمية لمن يروم تهديد مدينة فاس أو يرمي إلى احتلالها، ولذا أحكم الثائر بوحمارة قبضته عليها جاعلا منها منطلقا لأعماله العسكرية وفي نفس الوقت معقلا حصينا يحتمي فيه من ضربات السلطان المتتالية وحملات وزيره العسكرية.

لم ير المنبهي بدا من البدء بهاته المدينة وتحريرها من قبضة بوحمارة، فأقام بفاس بضعة أشهر استطاع خلالها أن يرأب صدع جيشه ويرص صفوفه ثم تحول إلى الهجوم من جديد فحصل على نجاحات متقاطعة ولفترات محدودة مكنته من إعادة بعض القبائل إلى الطاعة، وبما أنه كان يريد أن يتوج عمله بنصر أكبر فقد اتجه إلى مدينة تازة ليخلصها من قبضة بوحمارة فحاصرها ثم احتلها دون أن ينجح في القبض عليه وذلك بتاريخ **1903/4/29**.

وقد نقل المؤرخ عبد الله العروي في كتابه: "الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية ص 365" عن مذكرات الحجوي : أن شابات تازة من خوفهن عند احتلال مدينتهن من اعتداء الجيش على شرفهن كن يلقين بأنفسهن في آبار المنازل (دون أن يوضح قصدهن من ذلك أكان الانتحار أم الاختفاء فقط !).

كان فرار بوحمارة من تازة واسترجاع المنبهي لها بمثابة نجاح باهر لحملته العسكرية واستقبل الخبر في بعض المدن المغربية كطنجة وتطوان بابتهاج كبير حيث أطلقت المدافع في كلتي المدينتين إحدى وعشرين طلقة كما أقيمت مهرجانات للفروسية تخليدا لهذا الانتصار[1].

– ترتيب انسحاب المهدي من المسرح السياسي :

بعد هذا الانتصار الجزئي رجع المهدي إلى فاس خائبا يائسا من إصلاح وضعيته واسترجاع مكانته، فالحظ – في هذه المرة – قد تخلى عنه كلية، فالثائر بوحمارة الذي كان يمني النفس بإلقاء القبض عليه قد أفلت من قبضته ولا زال – رغم سقوط مدينة تازة – يستنفر القبائل ويستقطب الأنصار،

[1] تسع سنوات في خدمة المغرب ص 87

وربما فهم أن هناك قوة عظمى تساند هذا الثائر ولا تريد لفتنته نهاية.

تيقن الوزير أن الملك لن يستمع إلى أقواله ولن يصغي إلى أعذاره ولو كانت وجيهة، فالرتيلاوات والعناكب قد أحكمت خيوطها وحبكت نسيجها حول السلطان ولم يبق له منفذ يصل منه إلى قلبه ولا منطق يجدي في تغيير رأيه وعدوله عن قراره، لم يبق أمام الوزير إلا أن يسبق الأحداث وينسحب من الساحة السياسية بهدوء قبل أن يكتوي بنار الفتنة ويتجرع كأس المرارة، فقد كان والحق يقال ذا ذكاء ودهاء يقرأ للأمور حسابها ويتخذ للطوارئ عدتها.

وهكذا وجد المهدي نفسه وحيدا أمام أعداء كثر، فقد أجمعوا على حربه، ولا حول له بهم ولا قوة، فآثر السلامة على الندامة ورضي من الحصيلة بما تجمع لديه من أموال ونفائس، ونقل إلى طنجة كل ما يملك، وكانت هاته المدينة إذ ذاك تتمتع بنظام دولي يضمن الحماية التامة على الأشخاص والممتلكات.

مثل بين يدي السلطان متظاهرا برغبته الشديدة في أداء فريضة الحج واستأذنه في السماح له بالتوجه إلى الديار المقدسة دون أن يقدم استقالته أو يعرب عن تخليه عن خدمة ولي نعمته.

وفي الأسبوع الثاني من شهر دجنبر 1903، أبحر الوزير المنبهي – رفقة أهله وحرسه ووكيل أعماله أمين مصروفه أحمد الجاي– من مدينة طنجة متوجها إلى مصر وبقي بها متربصا خروج المحمل الذي ينقل الكسوة إلى الكعبة المشرفة مما نجد وصفه مثبتا في الجزء الثاني من مذكرات الضابط المصري اللواء ابراهيم رفعت باشا: "مرآة الحرمين" ونستخلص منها أن الوزير المنبهي كان يتصف بالنبل ودماثة الأخلاق مع تواضع وسلوك حسن ومعاملة طيبة، لا يملك من يتعرف عليه إلا أن يحبه ويثني عليه، أضف إلى ذلك جوده وكرمه ثم هو أيضا ذلك الفارس المغربي النبيل الشجاع الذي لا يعرف الخوف طريقا إلى قلبه. ونترك للمؤلف القول ليحكي لنا قصته مع هذا الحاج المغربي الشهم الكريم كما سجلها في كتابه: "مرآة الحرمين الشريفين، الجزء الثاني الصفحة 95" حيث يقول:

٢٣٢ الوزير السيد المهدي المنبهي بن العربي

[illegible] ٢٤٥

السفر من ينبع إلى المدينة بطريق الطريف (الزجاج)

المرحلة الأولى من ينبع البحر إلى ينبع النخل – قمنا من الأولى في منتصف الساعة الثالثة العربية من يوم الأحد 17 المحرم سنة 1322 هـ (31 أبريل سنة 1904م) وسرنا في ميدان فسيح مستوية أرضه إلى الساعة الحادية عشرة حيث دخلنا بين الجبال وقد مررنا في الساعة الثانية عشرة ببئر في ميمنتنا، وبعد المغرب بساعتين ونصف وصلنا ينبع النخل ولها من معنى اسمها نصيب فإن النخل بها كثير وعيون الماء العذب بها نابعة متفجرة وشكلها كما ترى في (الرسم 230) وقد رافق المحمل في سفره البطل الهمام السيد المهدي المنبهي بن العربي وزير حربية مراكش الذي عرفنا له في سفرنا كبير المروءة وعظيم الهمة وجميل الإحسان، فإنه أكرمه الله أعطى أمير جهينة 500 ريال ليوزعها على العربان ووزع بمكة على فقرائها وذوي الحاجة فيها الصدقات الكبيرة بل كلف محدثه الشيخ شعيبا من حفاظ الحديث أن يشتري عقارا بمكة يقفه على فقراء الحرمين وكان إذا بلغه دنو الأعراب من المحمل يقول لخادمه : هات العود يا ولد يريد جواده فيمتطيه بسرعة ليمنع عن المحمل عاديات الأعراب وكثيرا ما سار مع كشافتنا بعساكره المسلحين، وكان جواده يتسلق الجبال بسرعة ومهارة وكذلك ينزل منها. وقد أهدى الوزير هدايا قيمة من الجواهر النفيسة لكل من الشريف عون الرفيق باشا ووالي الحجاز أحمد راتب باشا، وكذلك أهدى لي ولضابط المحمل ساعات فضية وعلب دخان وأهدى أهل بيته لأهل بيتي ساعات ذهبية يدوية وكثيرا ما تناولنا الطعام والشراب سوية وكانت أدوات الشاي من المعدن الأبيض والأكواب من البلور المذهب. وقد صاحبنا الوزير ثلاثة شهور لم نر منه فيها إلا خلقا طيبا وعملا صالحا ونفسا كريمة أبية سباقة إلى الخير وكان بصحبته ولده السيد عبد الرحمن الذي توسمنا فيه آيات الفروسية والنجابة أنظر الوزير ونجله ووكيله في

(الرسم 231) وترى الوزير بأوسمته في (الرسم 232) الذي أهداه إلينا بعد أن أمهره بتوقيعه الآتي "السيد المهدي بن العربي المنبهي وفقه الله في 17 ربيع الأول سنة 1322 هـ) وترى النجل في (الرسم 245). وقد كان الوزير في كل محطة يترل بها تحاط خيامه بدائرة من الخفراء بين كل واحد وآخر بعض الأمتار وللخفراء رئيس يمر عليهم واحدا واحدا حاملا مصباحا بيده فإذا وقف أحدهم خاطبه بقوله: أجب فيجاوبه الخفير بصوت عال وألفاظ مغربية بقوله: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله يا جاه النبي فيتركه إلى خفير آخر يفعل معه كما فعل مع الأول وهكذا يستمر دائرا حول هاته الدائرة طول الليل.

ولقد زرنا الأمير في ليلة فأخبرنا بحادثة غريبة وهي أن قائد القوة العسكرية العثمانية التركي أتى إلى خيام الوزير صبيحة يوم ودخل عليه بلا سلام وتناول كرسيا جلس عليه وقال له: إن رجالكم منعوني النوم طول الليل، وقد قضيت ليلتي بين أرق وكشفت في القاموس لعلي أجد فيه ما يفسر ألفاظ الخفراء فلم أعثر على تفسير كلمة وأخيرا طرحت القاموس وأصغيت لهم ففهمت من كلامهم جملة لا ينبغي أن يذكروها خصوصا وأنتم في بلاد الدولة العلية فقال له: وما هي تلك الجملة، فقال: أما كنتم تستبدلون قولكم: يشا الإنجليز بيشا عبد الحميد فقال له الوزير: ومن ذا الذي قال يشا الإنجليز، فقال: خفراؤكم، فأجابه: لقد أخطأ سمعك إنهم لا يقولون إلا يا جاه النبي، وإن عدم تحري أذنك حقيقة ندائهم هو الذي أحدث لك هذا الأرق فخجل وانصرف.

هذا وقد أهداني الوزير المنبهي ونحن في الباخرة بين ينبع والطور الهدايا الآتية :

"بندقية موزر (طبنجة موزر)، جراب من الجلد ذو علاقة حريرية توضع به الذخيرة، ساعة فضية أهداها لي بينبع وكان مما قاله لي نجل الوزير السيد

عبد الرحمن الذي لم تزد سنه عن تسع سنوات: الباشا هادي المكحلة –يعني البندقية– حق جدي حرص عليها بزاف – يعني كثيرا– وكرر الجملة الأخيرة ثلاثا فسرني ما قال وقبلته في جبهته (انظر في الرسم 245) وترى هذه الهدايا (ما عدا الساعة في الرسم 246).

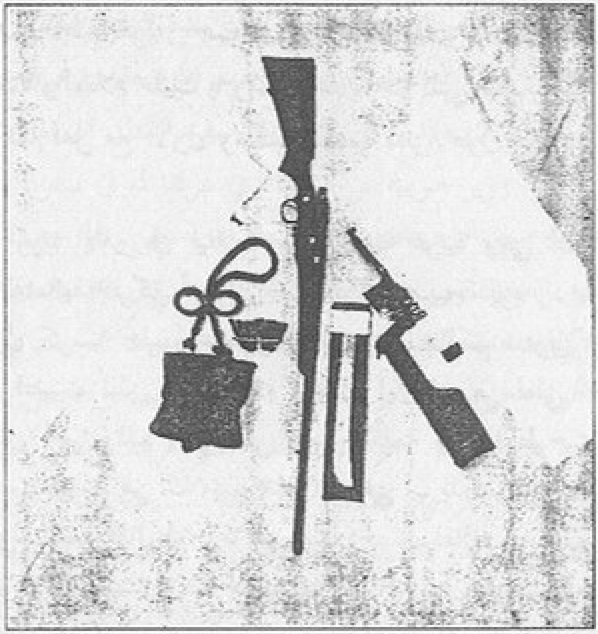

– ذيول ثورة بوحمارة :

كانت قضية الثائر "بوحمارة" قد أقضت مضجع المنبهي فعجز عن معالجتها بالقضاء على صاحبها وكان يعرف أن عجزه عن حل هذا المشكل سيقوي جانب أعدائه فيضعف مركزه ويفقده منصبه بينما استمر بوحمارة – بعد انسحاب الوزير– في التشويش على المولى عبد العزيز، وبعد عزله، على أخيه المولى عبد الحفيظ الذي بعد أن أسره قتله ورمى جثته إلى النمور التي

كانت بحديقة قصره؛ وقد أراد المولى عبد الحفيظ لهذا الثائر خاتمة يمحو بها أثره وينسي بها خبره، حتى لا يبقى له رسم ولا يعرف له قبر، لذا قتله رميا بالرصاص ثم طرح جثته للنمور الجائعة فافترست اللحم ومشت العظم ثم أحرق ما بقي منها لتذرو الرياح رمادها وتطوي الغبراء مادتها وقد يتساءل الباحث: لم هذا الغلو في الانتقام؟ هل نعده تشفيا في مصير عدو؟ أم سياسة يعتبر الحاكم أن من ورائها مصلحة؟

الحقيقة أن مظاهر الفساد في هذه الفترة الحالكة من تاريخ المغرب كانت كثيرة ومتنوعة تتجلى في هضم الحقوق وهتك الأعراض وأكل أموال الناس بالباطل ونقض للعهود وإخلاف للوعود، ولذا فإن آمال العامة كانت معلقة بمن يثورون على هذه الأوضاع، وميولهم وأفئدتهم مع من يعلنون حربا على السلطة، ويتصدون لها بالقول أو الفعل، والقيام ضدها في السر أو العلن، سواء بالكلام نقدا وتجريحا أو بالسلاح حربا وتدميرا.

وأرجح أن المولى عبد الحفيظ كان يتخوف لو دفن هذا الثائر أن يصير قبره مزارا ولمن اقتفى أثره شاهدا ومنارا، فآثر أن يدفنه في بطون النمور على أن يواري جثته حفار القبور.

وقد تضاربت الأقوال حول نهاية هذا المحارب: كيف تم قبضه ومن قبضه ثم كيف جرى إعدامه ثم كيف تمكن المولى عبد الحفيظ من أسر هذا الثائر الذي حار المغرب –وعلى رأس وزارة حربه العربي المنبهي – في كسره وهزمه، رغم ما بذل في ذلك من أموال وأعد له من معدات واستنفر لحربه قبائل الجيش – وهي كما نعلم قبائل موالية للسلطة في جميع الأحوال – وفيالق العسكر النظامي. فكانت خيبة المهدي في القضاء على بوحمارة كبيرة أفقدته ثقة ملكه فيه وقطعت ما بقي من أواصر العلاقة بينهما حتى أن المولى عبد العزيز أخذ يفكر – بعد التخلي عنه وإنهاء مهمته بتجريده من جميع وظائفه – في الإيقاع به وحجز ممتلكاته ومصادرة أمواله.

ترى كيف تلقى الوزير المخلوع في منفاه الاختياري "طنجة" خبر وفاة

بوحمارة بقطع النظر عن صورها البشعة حيث تضاربت الأقوال واختلفت الروايات في الطريقة التي أعدم بها المولى حفيظ هذا الثائر الفتان.

فالروايات الأجنبية خصوصا منها الدول التي كانت لها عيون تتجسس لصالحها داخل القصر وخارجه، وبصفة رئيسية هيئة المخابرات الفرنسية فإنها تؤكد استنادا إلى مصادرها الخاصة أن الملك أمر بإلقاء بوحمارة حيا إلى النمور الموجودة في قصره. ويذكر هنري تيراس في كتابه "تاريخ المغرب" ص 440 أن جثة الثائر قد ألقيت في النار بعد إعدامه رميا بالرصاص.

وينتقد الأستاذ أحمد باكو في مقال كتبه حول "نهاية بوحمارة" في مجلة "الكلمة" العدد الأول من السنة الأولى، هذه الروايات استنادا إلى ما ورد في كتاب المعسول الجزء 20 لمؤلفه الأستاذ المختار السوسي حيث سجل مؤلفه رواية سمعها من القائد الناجم الاخصاصي تفيد أن قاتل بوحمارة هو السيد إدريس منو الذي أفرغ فيه رصاص مسدسه واجتز رأسه وحمله إلى سيده ثم رجع به فأحرقه هو والجثة..".

وقد هدف الأستاذ أحمد باكو من ترجيحه لرواية المعسول إلى أن الرواية الأولى قصد بها الفرنسيون الإساءة إلى سمعة المغرب ووصمه بالهمجية واللاإنسانية

غير أننا نفند ما ذهب إليه الأستاذ باكو نظرا لأن الصورة البشعة التي مات بها بوحمارة لم يكن لها تأثيرعلى الرأي العام الأجنبي ولا خطر منها على سمعة المغرب لأن الدول التي كانت محتكة بالمغرب إذ ذاك كانت أقوى الدول الاستعمارية وأشدها قسوة على أهالي مستعمراتها تذيقهم من صنوف العذاب ما لا يخطر على بال، ولنا فيما فعلوه في المغرب وليبيا والجزائر وغيرها أقوى دليل، فهم في الجرائم الاستعمارية غارقون وفي أساليب الهمجية أساتذة بارعون.

وأستغرب أن يأمر الملك بعد القتل بالحرق، ومعلوم أن المسلمين لا يستسيغون التعذيب بالنار أو الحرق بها لا أثناء الحياة ولا بعد الممات.

ولتوضيح القضية من جميع جوانبها أثبت رواية ثانية نقلتها عن قيد للجد وقد كان يعيش هاته الفترة وتقلد بعدها مناصب سامية في الدولة مكنته من الاتصال بمن كان لهم دور واطلاع بأحداث الأزمة التي شهدها المغرب قبل الحماية وبعدها.

(أخبرني بعض المخازنية أن الجيلالي الزرهوني المدعو بوحمارة بعد أن وقع حرب بينه وبين بعوث مولاي عبد العزيز ثم وصل مولاي حفيظ إلى فاس فورد عليه سيدي محمد بن المكي الوزاني ممن كان يتوسط بين القبائل والمخزن في تلك الحروب، فقال لمولاي حفيظ:

إن بوحارة وصل إلى كذا "محل سماه المخزني ونسيته" يسمع المدفع الذي يخرج فيه في أوقات الصلوات من فاس وإن له شأنا كبيرا.

فحسر مولاي حفيظ عن شاشيته وقال لسيدي محمد: ليس عندي إلا هذه، إن دخل فاس كنت من مخازنيته وليس عندي شيء من ذلك الذي تريد، يعني المال والعدة، ثم دخل مولاي حفيظ داره فأمر بتجييش الجنود فورا وجعله أربع فرق فأنزل جيشا بظهر المهراز ولى عليه الحسين البا عمراني وجيشا بباب سيدي بوجيدة ولى عليه الباشا عبد الكريم ولد أب محمد الجامعي وثالثا أنزله بباب الفتوح أمر عليهم القائد إبراهيم بوعوده، ورابعا بباب الساقية ولى عليهم أقرار الشلح وأنهض الجميع لمناهضة بوحمارة فتحاربوا إلى أن فر لقبة لعلها قبة مولاي حفيظ الدرقاوي فجعلها وراء ظهره وصار يضرب هو وعبد له كل من رآه، فكان ببعض جيوش مولاي حفيظ رجل مدفعي يقال له: "البرنوصي الأوديي" فنصب المدفع من وراء القبة فضربها فانفتح منها فتح يمكن دخول الرجل منه واقفا فهجم عليه عسكري، وكان العبد قتل من ضربة مكحلة، فقبض الهاجم على بوحمارة من ورائه وجمع يديه فدخلوا عليه فقبضوه وأوصلوه إلى مولاي حفيظ بفاس فقال لمولاي حفيظ : من زعم أنه قبض علي – يعني نفسه – من قواد الأرحاء فقد كذب وإنما القابض هو الذي أخذ مجانته وكتاب دلائل الخيرات اللذين كانا عنده،

فأطلق مولاي حفيظ النداء من كانت عنده الجانة والدليل فله كذا فبعد 5 أيام جاء رجل إلى حاجبه فأخبره أنه الذي قبضه وحاز منه ما ذكر، فكانت الجانة منبتة بالأحجار والدليل مملوءا بالشاكات والأوراق المالية فكان عددها كما قال بوحمارة فأنفذ مولاي الحفيظ للعسكري فرسا وسيفا ودارا وخمس ريالات مياومة ثم بعد نحو شهرين أزال ذلك وقبضه، وأما بوحمارة فجعله والعياذ بالله تعالى في قفص من حديد مقدار ما يجلس فصار كلما دخل مولاي حفيظ عليه يسبه بوحمارة إلى أن قتله بعد نحو شهر ورمى بشلوه للسباع التي كانت عنده رحم الله تعالى الجميع وأحسن عاقبتنا الدنيوية والأخروية آمين.

أوضاع متردية :

بلغت الأوضاع الاجتماعية والسياسية والأمنية بعد وفاة الصدر أحمد بن موسى حدا من التردي لا أمل في إصلاحه بل يستحيل تقويمه وتصحيحه، فقد أضحت الدولة في هيكلها العام مزلزلة الأركان، متداعية البنيان، فالمناصب تسند لذوي القربى أو للأقوى أو لمن استغنى ورشا.

وبالإضافة إلى أن تصرفات الإدارة كانت تتسم بإهمال مصالح الدولة وعدم الحرص على حقوقها مع الاستئثار بمداخيلها، فقرارتها تتسم بالتعسف والاستبداد، وعجز تام عن تسيير وتحريك دواليبها في الاتجاه الصحيح، ولذا فالمؤشرات كانت تنبئ بوقوع الاضطرابات، وتوحي بقيام الثورات في جو فقدت فيه الثقة وغابت الطمأنينة وانعدم الاستقرار، وأصبحت جميع الطبقات مهددة في أرزاقها وحقوقها، وحتى في شرفها وكرامتها فالأموال تصادر والأعراض تنتهك والحقوق تداس والدعوة إلى الإصلاح تحارب في مهدها، ويقبض أو يعاقب القائمون بها.

وللاستدلال على ما ذكرت أورد ما اطلعت عليه تأييدا لما ذهبت إليه بنشر شهادات من عاشوا تلك الفترة من تاريخ المغرب نقلتها من قيد للجد الذي تقلد في هذه المدة مناصب في الدولة مكنته من الاتصال بمن كان لديهم دور واطلاع على أحداث الأزمة التي شهدها المغرب قبل الحماية وبعدها:

– **الشهادة الأولى** : قصة الاعتداء على الأعراض التي أدت إلى دخول الجيش الفرنسي إلى مدينة فاس والضغط على المولى عبد الحفيظ لتوقيع عقد الحماية:

سبب ثورة بني مطير وغيرهم من القبائل القريبة منهم على السلطان مولاي حفيظ بن السلطان مولاي الحسن العلوي بمراكش على أخيه السلطان مولاي الحسن العلوي التي تسبب عنها استعانته بالعساكر الفرنسية أن وزيره

المدني الجلاوي لما قام معه بمراكش على أخيه السلطان مولاي عبد العزيز وبويع له بمراكش ورد فاسا فقيد من أقاربه رجلين يقال لأحدهما: بويبرين وللآخر بوقدور على قبائل حجاوة و... واشتغل القائدان بالفساد والتعرض لحريم الناس وكانا يجتمعان معا في عين ماء هناك ويختاران من جاءت لسقي الماء منها من تلك القبائل، حتى بالاغتصاب؛ ففي بعض الأيام فعلا فعلهما، فذبح أهل تلك البنات على قبائل بني مطير وغيرهم فحاصروه بفاس إلى أن كتب قنصل الفرنصيص هناك بموافقة ابن غبريط الجزيري على لسان السلطان عبد الحفيظ كتابا في كاغد رقيق وثقبوْا فحمة وأدخلوا الكتاب فيها وأفضوا رجلا من عسكر السلطان لبس هداوة "أصحاب سيدي هدي" وجعل في قفة بالية فحيمات من جملتها ما بداخله الكتاب وذهب إلى العرائش لقنصل فرنسا هناك فلم يرع إلا والعساكر الفرنسية بفاس ففر أولئك الثائرون وامتنع رئيس العسكر الفرنصوي من ملاقاة السلطان قبل عزل المدني الجلاوي قائلا إنه منذ أن خرج من العرائش وهو لا يسمع إلا اسم كلاوة كأن لا سلطان، فأمره بلزوم داره فورا ثم توجه إلى محله بمراكش فمات بها ودفن ببراح ضريح سيدي ابن سليمان الجزولي رضي الله تعالى عنه.

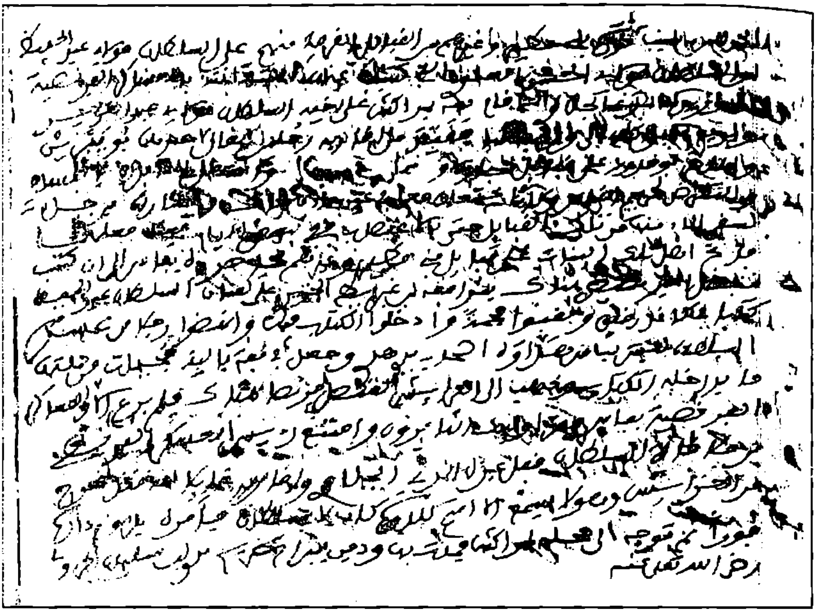

– الشاهد الثاني على المظالم التي كانت ترتكب في هذا العصر تتمثل في الاعتداء على الطوائف والعشائر وهي واقعة مستمدة من نفس مصدر الشاهد الأول:

وفي ربيع الأنور على مشرفه وآله الصلاة والسلام 1343 أخبرني الباشا الأسعد السيد عبد الرحمن ابن المرحوم الحاج محمد ابن النائب السلطاني بطنجة السيد محمد بركش الرباطي أن جده السيد محمد المذكور أخبر:

أنه حين نيابته بطنجة قدم رجل من جيش عبيد البخاري باشا على طنجة وأهل الجبال، وكان تقدم له رياسة المشور من مولانا عبد الرحمن العلوي يقال له الجبوري، فصار يلزم أهل الجبال بالضرائب، فوجه يوما على أهل زاوية سيدي عبد الله الهبطي فجاءه منهم جماعة شيب ذوو ثياب نقية

ووجوه حسان فوبخهم على عدم مسارعتهم لتهنئته بالقدوم إلى بلادهم باشا، وألزمهم ألف ريال ذعيرة على ذلك فأظهروا له الانقياد واستمهلوه للإتيان به، ثم ذهبوا إلى النائب المذكور للشكاية عليه بما نالهم ولما رأى تلك الوجوه أدخلهم وهش في وجوههم فلما قصوا عليه القصة قال لهم:

أتيقن أنه يمتثل لما آمره به، ولكنه ربما يحقد عليكم ويتربص بكم، فوجههم مع بعض أصحابه إلى دار الباشا، وركب هو ومر على طريق أخرى، فلما عاينه أصحاب الباشا بباب روضه، تبادروا إليه وخرج إليه الباشا من داخل الروض مبادرا، فقال له: إني جئتك شفيعا في هؤلاء، لأنهم ممن يعرف، فوجه إليهم الباشا خطابه وشتمهم غاية الشتم وقال لهم: عليه وعليه إن لم يأتوه بالألف الريال ليفعلن بهم ويسجنهم فلما سمعه النائب قام وقال له: أشهد الله إن قبضت واحدا منهم ليخرج حالا، ويجعل الباشا في موضعه، وخرج وأخرجهم معه، ثم ردهم إلى داره ولين لهم الكلام، وأعطاهم ألف ريال إكراما لهم، ووجههم مع بعض مخازنيته حتى يخرجهم على باب البلد. فبمجر خروجهم تفطن الباشا لما فعل، ولامه إخوته وذكروه في مكانة النائب عند السلطان، وبسط سلطته عليه وعلى غيره، فحسب كل حساب، ووجه إخوته للتشفع فيه للنائب والاعتذار عنه وندمه، فردهم النائب خائبين، فذهبوا ثم جاءوه برجل من أحبابه يسمى السيد عبد السلام أحرضان من أعيان طنجة، فقال له: إن هؤلاء ألحوا علي في الإتيان معهم متشفعا إليك وهم يريدون ذبح كبشين عارا، فمنعهم من الذبح وتظاهر بالسماحة لوجه السيد عبد السلام المذكور. فلما نام النائب رأى رجلين أشيبين، فقال له أحدهما وهما في صفة حسنة وثياب جميلة : أنا عبد الله الهبطي موقف القرآن، وهذا عبد الله الفخار (دفين تطاوين) شيخ أبي العباس السبتي جئنا لنجازيك على ما فعلت بأولاد الهبطي ولكن بقي عليك التمام وهو عزل الجبوري،

فقال لهما: إني سامحته بشفاعة أحرضان، فقالا له: إن الأمر مصوب، إنما بقي كتابك، فأخبر السلطان بالخبر فورد الجواب بعزله عنهم وتوجيهه إلى ناحية تادلا عاملا بها لأنها موضع فتن إذ ذاك.

– الشاهد الثالث: التهديد اللاحق بوجهاء وشرفاء الحواضر مأخوذ من نفس المصدر:

وأخبرني السيد عبد الرحمن بركش عن جده السيد محمد:

أنه كان ورد عليه كتاب يأمره بالقبض على سيدي الحاج عبد السلام بالمشار بسبب أن أهل أنجرة ثاروا، وذكر على لسان بعضهم الدعاء له بالنصر، فوجه السيد محمد علي باشا طنجة إذ ذاك ابن عبد الصادق وكان رجلا مسنا وكان لسيادة الشريف المذكور منزلة كبيرة في أعين أهل طنجة وحرمة قوية جدا لم يكن مثلها لأحد، فعظم الأمر عليهما فاتفقا على أن يوجه ابن الصادق على كاتب الشريف المذكور لغرض يتظاهر له به إذ كانت له قضايا كثيرة بسبب عزاباته والمتعلقين به وأن يفتح الكتاب، ويضعه مهيأ إذا دخل عليه كاتب الشريف ويتظاهر بتشاغله عن الكتاب وأوصى أحد مخازنيته عند شروعه في الكلام مع الكاتب ويصير يساره بشيء ريثما يتمكن الكاتب من قراءة كتاب القبض، لما أحس أنه أتم قراءته لكونه اضطرب كلامه الذي كانا فيه، وتمغر وجهه، قال له ابن عبد الصادق راجعا إلى الكلام الذي تظاهر له به أولا، وأكد عليه في مباشرة أمره.

فلما ذهب الكاتب وأخبر الشريف ركب سيادته على فرس فورا وذهب لدار سفارة الفرنصيص بطنجة، فاستعظم قدومه إليه لجلالة الشريف المعروفة عند كل أحد، وليس من عوائده إتيانه ولا غيره، فأسرع الخروج إليه فقال له الشريف، إنه أراد أن تحميه فرنسا، فتهلل وجه السفير وأظهر فرحا كبيرا، فرجع الشريف لمحله، وذهب السفير فورا لدار النيابة المخزنية فقال للسيد محمد: إني أخبرك بأن الشريف سيدي فلان وداره وعائلته وعزائبه ووزان كل هذا حماية فرنصوية الآن وأني سأكتب لك بهذا الآن.

فسر السيد محمد بنجاة الشريف من السجن ظلما وقال له:

إن كتبت لي بشيء أعلمت به السلطان ويكون العمل على ما يأمر به، فرجع السفير وكتب، فطير النائب ذاك للسلطان وأكد عليه في تأخير القبض

عليه إلى وقت آخر خوف عقبى التعجيل به لتداخل فرنسا ثم كتب النائب لابن عبد الصادق يخبره بما جرى مع السفير ويأمره بتأخير القبض إلى ورود جواب المخزن الشريف وتمت المسألة والأمر لله تعالى.

الشاهد الرابع : الفتك بالعلماء الداعين إلى الإصلاح

أخبرني السيد الحاج عبد الله القباج الكاتب المدعو الشاعر المطبوع أن سفير فرنسا كان أوائل أيام مولاي عبد الحفيظ بفاس وكان بين الشاعر المذكور وبين الشريف الأجل العلامة العارف سيدي محمد بن سيدي عبد الكبير الكتاني اتصال ظاهر واتصال بين الشاعر والسفير المذكور فقال له

السفير يوما: ما يريد هذا الكتاني صاحبك؟ يريد أن يكون سلطانا فقال: لا، ولكن يريد احتراما له ولزواياه وأصحابه، فقال: إن كان لا يريد إلا هذا منا لزم أن يكون كذا وكذا لما قلت آنفا.

فهل يمكنك أن تأتي به لمحلك ونجتمع معه في هذا المعنى؟ فجعل معه موعدا بدار الشاعر، فجاء السفير صحبته السي قدور بن غريط ثم ورد الشريف معه أخوه السيد الحي لا غير، مجيئا سريا، فقال السفير للترجمان: قل له ما له يفسد علينا الناس ويفشي سوء سمعة دولتنا فأنكر الآخر فأحضر له مكاتب بخطه لأهالي القصر ومكناس وغيرهم بتحذير الناس وتشويه سمعة المحذر منهم، فتلاوما قليلا ثم قال له: تريد أن تكون سلطانا؟ قال: لا، قال له: إن هذا السلطان بين أسلافه وبين دولتنا عهود وقوانين نسعى في إجرائها معه، وهو يريد أن يقتلك وأنت ما تريد؟ إلى أن التزم له السفير أن يكون مستشارا مع السلطان لا يبرم شيئا إلا بموافقته، وأن يستخدم جميع أصحابه بما يناسبهم من الخدمات المخزنية، وتحترم سائر زواياه، ويكون الكل في حمايته.

فاتفقا عليه ريثما يكتب السفير لدولته، وبعد خمسة أيام أو نحوها خرج الشريف ليلا لبلاد البربر فكان من أمره ما هو معروف ومنه أن الشريف المذكور بما فيه إخوته وأولادهم وسائر خدمهم وما شعر بذلك أحد ويقال إنهم خرجوا متفرقين من أربعة أبواب.

ولما وجه مولاي عبد الحفيظ السلطان الطلب في قبلهم خمسمائة من الخيل عليهم القائد (....)، فوصلوا إليهم بأوائل بلاد البربر لم يتوغلوا فيها، ويقال أن سبب تأخرهم أن سيدي عبد الكبير أبا سيدي محمد رحمهما الله تعالى امتنع صباح ذلك اليوم من الركوب بجد السفر متعللا بأنه لا يركب حتى يصلي الظهر، وامتنع من أن يفوته صلاة ضحى ذلك اليوم. فبسبب تأخرهم فبمجرد ما ساروا أدركوهم فترجل القائد وكبراء من معه عند رؤيتهم للشريف سيدي محمد وأدوا له مراسم التحية كما يفعلون بالسلطان، ثم خاطبوه برفق ولين وإجلال يطلبونه بأمر السلطان لهم أن يشخصوا إليه مكرمين لغرض، فلما صار أولئك القبائل يتشاورون فيما بينهم في الامتناع

من رجوعه قال لهم الشريف: لا بد من امتثال أمر السلطان، فرجعوا بهم مكرمين إلى أن وصلوا إلى أن رآهم السلطان بالمكبرة والشرفاء راكبون، أزعج من المخازنية من أنزلهم إلى الأرض ووجد هناك الحداد فجعل في أرجلهم أكبالا وأوصلوهم إلى السلطان في (...) عظيم إنا لله وإنا إليه راجعون فوجدوا عنده علماء فاس فأدخله عليهم فصاروا يناضلونه فمنهم المشط والمتوسط إلى أن أمر بهم للإسجان إلى أن قتل الشيخ الفقيه العلامة المتبحر سيدي محمد رحمه الله تعالى وأسكننا وإياه فراديس الجنان ومن علينا من فضله بالرضاء والرضوان آمين.

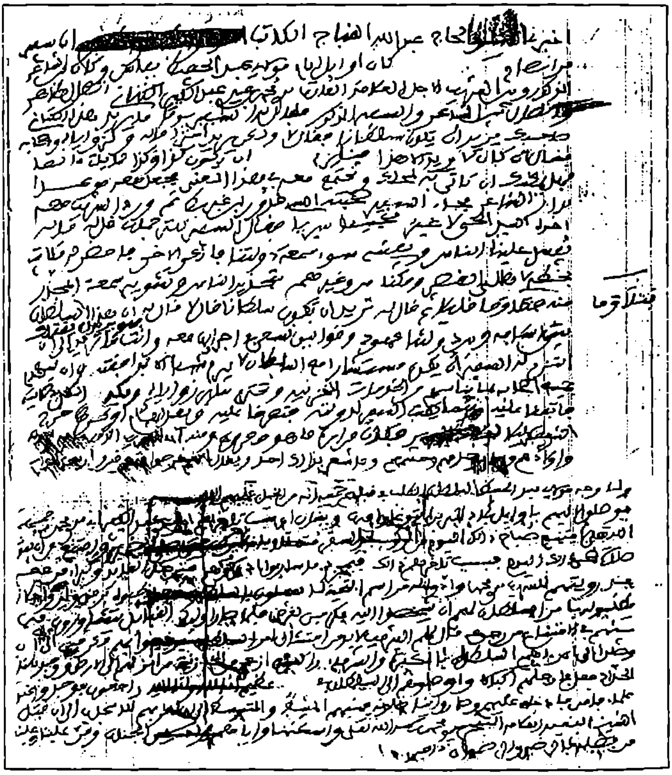

الشاهد الخامس: يعطي صورة عن تعلق جماهير الشعب بالمصلحين والدعاة إلى بسط سلطان العدل، وضمان سلامة الناس من استبداد الحكام:

في يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثاني عام 1322هـ، وكان يوم العنصرة ورد سيدنا ومولانا العارف الأكبر الشيخ سيدي ومولاي محمد ابن العارف بالله تعالى الأكبر سيدي عبد الكبير الكتاني الشريف من حضرة فاس قاصدا حج بيت الله تعالى وزيارة قبر جده عليه السلام، وكان يوما عظيما تلقاه أهل البلد لم يتأخر إلا قليل منهم، ومنهم الفقيه العلامة سيدي محمد ابن الفقيه العلامة القاضي سيدي عبد الرحمن البريبري والفقيه العلامة القاضي وقتئذ سيدي أحمد ابن سيدي محمد بناني الرباطي وعامل البلد والأمناء وغيرهم حتى كان من مون سيدي مخلوف نفع الله تعالى به إلى باب البحر لو سقطت إبرة لنزلت على رأس إنسان أو ما يقرب من هذا. ومن هناك للزاوية التي كان يجتمع بها أصحابه بهذه الحضرة الرباطية وقتئذ قدام حمام القصري ودخل في وسطه أصحابه وهو راكب إلى الزاوية المذكورة وعمر بها وأصحابه والفقيهان المذكوران وكاتبه معهم واقفون بأطراف الحلقة وهم رضي الله عنهم يرقصون ثم ذهب للمحل المعد لنزوله وهو روض بركاش بدرب مرين والدار الملاصقة لهم وبقي هنا أياما والبلد كلها ترقص طربا به وفرحا ويزدحمون ازدحاما عظيما على تقبيل يده رضي الله تعالى عه ويذهب بقصد الإكرام هو وأصحابه كل يوم لثلاث ديار فأكثر يعمر في أصحابه ويتبرك الناس به. وأقرأ يوم الجمعة بعد الصلاة إلى قرب العصر على الكرسي بالمحراب في المسجد الأعظم قول سيدنا عبد الله بن عمر من كتاب الإيمان من صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر، فذكر ثلاثين حكاية في تكلمه على الأحاديث التي فيها الإشارة إلى معرفة التقوى وذكر كلام السلف في معناها أيضا والتعريف بابن عمر المذكور كلها متعلقة بالتقوى، ثم أقرأ ليلة الأربعاء بعد قول صاحب الهمزية: لك ذات العلوم من عالم الغيب، البيت، وأعجم وأعرب وذكر برزخية مولانا رسول اله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وتعلقات جميع الأكوان به عليه السلام.

وممن حضر المجلس المذكور الفقيه البريبري المذكور والفقيه عبد الرحمن بريطل والفقيه الأديب سيدي الحاج المكي البطاوري والأديب السيد الحاج التهامي العربي والفقيه سيدي الحاج محمد ابن الهاشمي الشرقاوي الغزواني في آخرين دون مراتب هؤلاء حتى قال كاتبه لسيدي الحاج المكي المذكور: الفرق بين هذا الشريف وبين الحاتمي أن هذا شريف رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وفي هذه المرة كنت لا أتلاقى معه رضي الله تعالى عنه إلا زيارة وهدية رضي الله تعالى عنه وفيها كتب لي الإجازة في المعقول والمنقول والكشفيات وبإقراء تآليفه كلها وشكوت له يوما قلة الحفظ فأخبرني أن أخاه الفحل الكبير المحدث سيدي عبد الحي نفعنا الله تعالى به جاءه يوما بشيء من ماء زمزم لما شرب له وطلب منه إشرابه له بيده الشريفة ونوى له في ذلك حتى كان من أمره على صغر سنه وحداثته ألف نحو (...) مؤلفا في علوم الحديث وذكر عنه عجائب في هذا المعنى ثم استجلب من ذلك الوقت شيئا من ماء زمزم وأشربني وسقاني إياه بيده الكريمة منها لفمي في آنية بديع وقال لي نويت لك غنى سيدنا أنس يعني ابن مالك وعلوم السيوطي ووسط المعمرين الذين يعيشون مائة وخمسين سنة 150 ورسوخ وورع السلف الصالح وأن أكون من أركان هذه الطائفة الكتانية أعلى الله تعالى منارها. كل ذلك سرا مني إليه. وقبل هذا بنحو الأيام ناولني بيده الكريمة من غير سؤال ونحن بدار سيدي حفيظ الكتاني نسبا وطريقة إناء ملأه ماء وقال لي: هذه بالقطبانية فشربتها كلها وبعده بأيام قلائل ونحن بدار الأخ في الله الفقيه سيدي مصطفى بن أحمد ملين قال لي تلبس إن شاء الله تعالى حلة القطبانية بغير تعب وكررها حتى قال له الشرقاوي المذكور آنفا وكان حاضرا: هلا جعلت هذا لي؟ فقال له رضي الله تعالى عنه في الجواب: لو نزلت شاشية من السماء إلا على رأس من لا يريدها، وأجازني بخط يده عندي بكل ما يعن له رواية ودراية. ومعقولا ومنقولا وكشفا وبطريقه وإعطائها للغير بشروطها كل ذلك عندي بخط يده الكريمة الشريفة رضي الله تعالى عنه. ومما سمعته منه أن صاحبه سيدي بوبكر التطواني السلاوي لم يدر سور بالمغرب على مثله وأنه لو علم أنه يموت

لاستخلفه على أصحابه رضي الله تعالى عنه. وقال لي عن والده سيدي عبد الكبير رضي الله تعالى عنهما يستحق أن تضرب له أكباد القلوب وبشرني رضي الله تعالى عنه أني أحج معه هذا العام وعلى الله تعالى الكمال لا رب سواه بجاه مولانا رسول الله عليه وآله أفضل الصلاة والسلام وقال لي رضي الله تعالى عنه أيضا إني تركتك وحدك بحرا وأعطاني رضي الله تعالى عنه طاقية حمراء لاطية وأقلاسا ونسخة من حكمه فذكرت له استعجامها علي فقال ستفتح لك إن شاء الله تعالى.

مما تقدم، يتبين أن الشعب كان مستعدا لا تباع أي ثائر، والانقياد لكل داعية، فهو يبحث عن مخلص يجمع شمل العباد، ويوحد أطراف البلاد، يستتب على يديه الأمن، ويعم بحزمه وسيرته الحق والعدل، والحاكم المستبد لا يبتعد عن نزواته، ويأبى أن يتراجع عن سياسته، فيقاوم دعوة الإصلاح بالعنف ويحارب ثورة الخلاص بالحديد والنار ويغالي في التعذيب والتمثيل، ليعتبر من يفكر في الخروج عن طاعته، وانتقاد سيرته أو سياسته.

الحمد لله وحده. اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد الذي جعلت اسمه محمدا باسمك ونعتك وصورته بكمال الجمال على صورتك [illegible] حقيقته نسله الله تعالى بسيدنا آدم [illegible] [illegible] من أسرار الله بل حتى إذا أحب [illegible] شيئا [illegible] وعلى آله وصحبه وسلم

عام [illegible] في يوم الثلاثاء [illegible] وكان يوم العيد [illegible] سيدنا ومولانا العارف بالله الشيخ [illegible] ومولاي محمد [illegible] العارف بالله تعالى [illegible] من حضرة [illegible] رحمه الله تعالى [illegible] وزيارة [illegible] عليه السلام وكان يوما [illegible] لأهل [illegible] إلا قليل [illegible] ومنهم الفقيه العلامة سيدي محمد الفقيه العلامة الشيخ سيدي عبد الرحمن [illegible] والفقيه العلامة [illegible] وسيدي أحمد [illegible] [illegible] [illegible] الله تعالى [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] الوزارة [illegible] أصحابه [illegible] ومشى [illegible] وحل [illegible] أصحابه [illegible] إلى الزاوية المذكورة [illegible] والفقيه المذكور [illegible] الخليفة [illegible] رضي الله عنهم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] رضي الله تعالى عنه [illegible] كل يوم ثلاثاء [illegible] أصحابه [illegible] ويوم الجمعة [illegible] إلى [illegible] على [illegible] رضي الله تعالى عنه [illegible] حتى [illegible] على الأحاديث [illegible] الإشارة [illegible] كلها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وذلك [illegible] سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله [illegible] جميع [illegible] عليه السلام [illegible] المجلس المذكور الفقيه [illegible] المذكور والفقيه السيد عبد [illegible] [illegible] سيدي الحاج [illegible] الحاج [illegible] والفقيه سيدي الحاج [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] سيدي الحاج [illegible] المذكور [illegible] [illegible] رضي الله تعالى عنهم أجمعين [illegible] [illegible] رضي الله تعالى عنه [illegible] [illegible] رضي الله تعالى عنه [illegible] في المعقول والمنقول [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] سيدي عبد الحي [illegible] الله تعالى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] سنة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الله تعالى [illegible] [illegible]

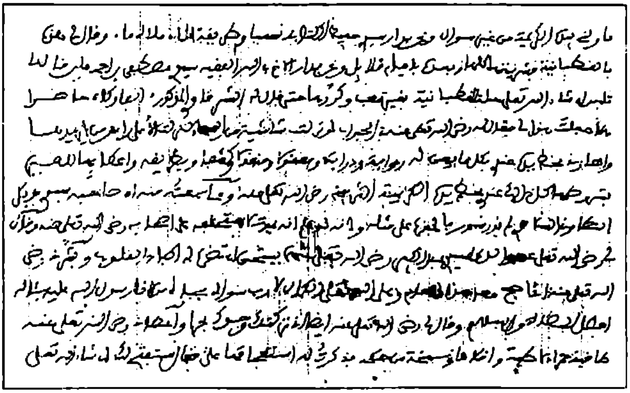

نهاية غريم :

لقد سمع المنبهي – وهو بطنجة – بمقتل هذا الثائر بوحمارة الذي كان قد أقض مضجعه، وأسقط هيبته، وأفقده منصبه كوزير للحرب، ولا شك أن الخبر نزل بردا وسلاما على قلبه، لا لأنه فقط سبب بلواه، الذي رمى به إلى منفاه، بل للمنافسة الشخصية، على أعلى المراتب في الدولة، فقد تناقلت الألسن قصة لا ندري مدى صحتها، رغم شيوعها وانتشارها، وهي: أن الرجلين جمعتهما في أيام مولاي الحسن زنزانة السجن فتعارفا وتقاربا وبث كل واحد منهما الآخر شجونه وهمومه، وآماله وأحلامه، إلى أن قال المنبهي: عند خروجي من السجن سأعمل لأكون وزيرا !

فأجابه أبو حمارة متحديا : إن صرت أنت وزيرا عملت أنا على أن أصير سلطانا !

فما تردده الشائعات التي كانت تروج إذ ذاك، هو أن "بوحمارة" لما رأى صاحب الأمس في السجن قد صار وزيرا، أعلن ثورته المسلحة ليكون حاكما وربما ملكا !

وقد نتساءل: على ماذا يدل هذا الإفراط في الأمل من سجينين، أحدهما داهية أصبح وزيرا، والثاني شديد المراس قوي الجنان، قاد ثورة أعجزت ملكا حتى تخلى عن عرشه وأوهنت أخاه حتى تنازل عن ملكه.

الواقع أنهما كانا على علم تام أن الدولة قد دب في أجهزتها فساد لا يرجى إصلاحه، وأن مرضها لا أمل في برئه، فالعامل يشتري منصبه بماله، فيستقل بإقليمه، يفرض الأتاوات، ويستولي على الغلات، يسوق الرعية سوق العبيد، ويسومها سوء العذاب، وينزل بمن تبرم أشد العقاب، والسلطة المركزية في غفلة عما يروج، لا تبالي بشكاوى المظلومين، ولا بأنات المجروحين والمحرومين، همها أن يملأ العمال خزانتها المثقلة بالديون، بما يصادرونه من أرزاق الناس وأموالهم، ويستولون عليه من حصاد الفلاحين وأقواتهم، وغلات التجار وأرباحهم، إذا فالطريق إلى احتلال أعلى المناصب ماهد، لا يحتاج إلا إلى دهاء كدهاء المنبهي أو عزم كعزم الجيلالي: "بوحمارة".

سياسته نابعة من صفاته متأثرة بتجاربه :

كانت سياسته مع معارفه وذوي الشأن في عهده سياسة مهادنة ومداهنة، يؤثر المواربة على المواجهة، والمجاملة على المغالبة، فالوسائل السلمية مهما غلت أقل كلفة، ومهما تطلبت لا تترك جرحا ولا تخلق شرخا، لذا كان يهنئ ويعزي، ويتودد ويستلطف ويهدي، لمعرفته بما للمال من تأثير على النفوس، وحله للمشاكل وتذليله للمصاعب.

وكان شديد التكتم، فقد حصل على الحماية الإنجليزية له ولعائلته وثروته، دون أن يعلم أحد بحقيقة وضعه، كما كان يستوثق لنفسه من ملكه خوف أن يرجع عن رأيه فيه، ويضمر له ما لم يكن يبديه. فقد تعلم من رجوعه من سفارته بإنجلترا، ومحاولة القبض عليه والإطاحة به، وتجريده من منصبه ونفوذه، أن السياسة خلسة سريعة الفوت، بطيئة العود، وأن الدهر يومان يوم لك ويوم عليك، وأن كرسي الرئاسة في الظروف التي كان يعيشها المغرب دائم التأرجح، كثير التقلب فلا أمان فيه لجالس، ولا دوام فيه لضاحك أو عابس.

لذا عند توجهه إلى طنجة في طريقه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، دفعته يقظته، إلى أن يتحصن بتوصية من الملك عبد العزيز إلى ممثله بطنجة محمد بن العربي الطريس يوصيه به خيرا، وهي توصية ما كان المهدي ليطلبها لو كانت قدمه في الحكم ثابته، ومرتبته في المخزن حصينة، فممثل السلطان بطنجة يعلم

منزلته ويقدر نفوذه وما كان يتمتع به من سلطة، لكن المهدي تظاهر بحاجته لهذه التوصية ليتخذها وثيقة أمان وظهير طمأنينة وسلام، وقد وقع ما توجسه، فما أدار ظهره، وغادر وطنه، حتى صدر الأمر بمصادرة أمواله وحجز ممتلكاته، وعن تطورات هذه القضية يحدثنا الضابط السيد لونار كاروي قائد السفينة المغربية سيدي التريكي.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه خديمنا الأرضى النائب الحاج محمد بن العربي الطريس وفقه الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فإن خديمنا الأرضى الأرشد الأنصح الطالب المهدي بن العربي المنبهي قد توجه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه السلام وعليه فإذا حل بطرفكم نأمرك بالوقوف معه في جميع ما يعرض له والأخذ بيده والاستيصاء به خيرا والاعتناء به في شؤونه كلها حتى يتوجه لما هو بصدده والسلام في رمضان عام 1321 .

يلاحظ من أن الظهير اقتصر على وصف المنبهي بصفة خديم فقط دون الإشارة إليه بالوزارة وقد تجاهل المنبهي كل ذلك موثرا السلامة والانسحاب بهدوء.

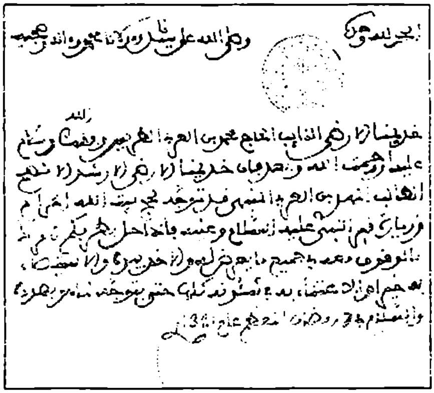

الدولة الإنجليزية تحمي الوزير المنبهي

من كتاب تسع سنوات في خدمة المغرب ص 125 :

" لم يكن المولى عبد العزيز يجري على عادة من سبقوه من السلاطين في تجريد من باءوا بغضبهم من ممتلكاتهم وتصفية عقاراتهم والاستيلاء على أموالهم

فالمشهور عنه أنه كان يناهض قرارات أسلافه في عصر الموظفين الذين اغتنوا كثيرا كما يعصر البرتقال ولم يحاول ذلك إلا مرة واحدة عندما خامرته فكرة تجريد وزيره المخلوع المهدي المنبهي من جميع ما يملكه، غير أنه لم ينجح في هاته المحاولة التي كان يحسبها من اختصاصه ويعتقد أنها في متناوله وأن تنفيذها رهين بأوامره.

فالمهدي كان بعيد النظر يشعر بالأخطار المحدقة به وفي مثلها يكشر الأعداء عن أنيابهم ويتقاعس الأصدقاء عن نصرة عزيزهم. وبالتالي فقد اتخذ للأمر عدته واستوثق قبل ذلك لنفسه عند أصدقائه الانجليز الذين لم يبخلوا عليه بحمايتهم الفعلية مقدرين تعاطفه معهم إبان كان المغرب هدفا للأطماع الاستعمارية وغنيمة مرتقبة تتنافس عليها وتتسابق للفوز بها كل من اسبانيا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا.

وملخص القضية أن الملك الذي لم يكن على علم بحصول المهدي على الحماية الانجليزية – لأن داهية في مثل ذكاء المنبهي تمسك بكتمان خبرها ولم يطلع أحدا عليها حتى لا تستريب في أمره الجماهير الشعبية والأوساط العلمية

والدوائر الحكومية – قرر في أوائل غشت 1904 مصادرة جميع ما يملكه وزير حربيته؛

وبما أن الوزير كان يتمتع بحماية الدولة الانجليزية منذ سنة 1901 فقد التجأ إلى مفوضيتها لتعمل على نصرته وصيانة مكتسباته وجميع حقوقه، غير أن المخزن الذي لم تكن هذه القضية في حسبانه احتج باتفاقية مدريد المبرمة في 1880 التي تنص على امتناع الدولة الموقعة عن حماية أعوان وموظفي المخزن وقد سبب ذيوع خبر هاته الحماية دهشة في أوساط الرأي العام الذي لم يسبق له أن عاش حدثا مشابها لها فالمعروف أن الأوساط الحكومية هي أول من يناهض تدخل الدول الأجنبية ويصد محاولاتها التحكمية في رعايا دولة لازالت تتمتع باستقلالها.

وقد قاد الصحفي الانجليزي الذي كان مقيما بالمغرب مسيو والتيربيرتون هاريس[1] على صفحات جريدة التايمس حملة لفائدة المنبهي ودافع عن حقه في المحافظة على ممتلكاته مستنهضا حكومته للدفاع عن مصالح محميها كأنه أحد رعاياها.

وبالفعل فقد قام موظفو القنصلية الانجليزية في طنجة وفاس والقصر بوضع أختام مفوضيتهم على أملاكه في هاته المدن.

وازداد الأمر خطورة عندما تمسكت الحكومة الانجليزية برأيها غير عابئة بأوفاق مدريد فأرسلت –لتدعم موقفها – بارجسة حربيـــة لومينـــيـــرف le Minérve إلى ميناء طنجة، فلم يسع السلطان من جهته إلا أن يتراجع عن ما أصدره من أوامر وكلف وزير المالية السيد محمد التازي بإيجاد حل مقبول وفي الأخير تخلى عن القضية برمتها "

1 هاريس جاء إلى المغرب في سنة 1887 وبدا يعمل مراسلا لصحيفة التايمس وأصبح صديقا حميما للمولى عبد العزيز منذ سنة 1901.

علاقات المهدي بعد اعتزاله كرسي الوزارة

من خلال الوثائق التي بين أيدينا نرى أن هذا الرجل الذي حنكته التجارب لم يضع حدا لعلاقته مع الدولة التي وضعته بعد أن كان صنيعتها وربيب نعمتها. فقد جدد اتصاله مع ملكه السابق في منفاهما ومدينة إقامتهما طنجة الدولية، وبقيا على أحسن ما يرام إلى أن فرق الموت بينهما ، كما أقام علاقة متينة مع خلف صديقه في المنفى المولى عبد الحفيظ، وبعده مع أخيهما يوسف ثم ابنه محمد الخامس تاركا حبل العلاقة موصولا وباب التعامل مفتوحا.

وقد حكى لي حفيده السيد عبد الحق المنبهي سنة 1998 أن جده استأنف علاقته الودية مع ملكه المعزول عبد العزيز في منفاهما بطنجة واستمرا في تزاورهما وتعاملهما كصديقين حميمين متناسيين ما كان اعترى صداقتهما إبان الحكم من فتور أدى إلى القطيعة التامة بمحاولة الاستيلاء على ثروة المهدي وتجريده من كل ممتلكاته.

استطاع المنبهي أن ينشئ علاقة ممتازة مع الملك الجديد مولاي حفيظ الذي انتزع الملك من أخيه انتزاعا واضطره – بعد مناوشات وحروب – إلى الالتجاء إلى مدينة طنجة ولعل مايبرر حسن علاقته مع الملك الجديد هو سخط مولاي عبد العزيز عليه وتحصن وزيره من بطشه بالحماية الانجليزية والتجائه إلى مدينة دولية لا سلطة للملك عليها. وقد بلغت به ثقته بمنزلته عند مولاي حفيظ وحظوته عنده أن قام بدور الوسيط بينه وبين أخيه مولاي يوسف في إصلاح ذات البين بينهما، وقد استجاب الملك لوساطته فكتب إليه يبلغه صفحه عنه وترحيبه به في ظهير مؤرخ ب 24 رمضان 1326هـ

1908 م، كما كان شفيعا لمولاي الزين عند أخيه الملك كما نص على ذلك ظهير 28 ذو القعدة 1326هـ/1908م. كما أنه تبادل التهاني معه لما تمكن المولى حفيظ من الفتان"بوحمارة" بالقبض عليه. وقد كانت تهنئة المهدي تنم عما يكنه من حقد لهذا الثائر الذي كان غريمه بالأمس والسبب في فقده لمنصبه ولثقة ملكه فيه.

ومن ظهير 26 شعبان 1327 الجوابي نستخلص العلاقات الوطيدة بين مولاي حفيظ والمنبهي.

والغريب أننا نجده يحشر أنفه في أمور الدولة فيقبض ويطلق فيبارك الملك فعله، كأنه لازال من كبار رجال السلطة كما يدل على ذلك ظهير 3 شعبان 1326 هـ 1908م، كما انه يبدي ملاحظاته على تجاوزات السلطة عند قيامها بحجز أمتعة الرميقي عندما تعدت داره إلى دور الغير ويجيبه الملك على ملاحظاته في ظهير مؤرخ ب9 شعبان 1326هـ/1908م ويكافئه على ما يقدمه من نصائح وخدمات برد داره الكائنة بمدينة مراكش مع ما فيها من متاع كما نص على ذلك ظهير 12 رمضان 1328هـ/1910م.

ويتبين من مراسلاته مع ملوك الدولة العلوية أن علاقته بهم لم تنقطع إلى أن أدركته الوفاة في عهد السلطان محمد الخامس سنة 1940 بمدينة طنجة ودفن بها في ضريح سيدي بوعراقية.

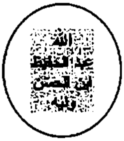

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خديمنا الأرضى الأنجد الحاج أحمد المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمت الله وبعد : وصل كتابك الأول ثم الثاني مخبرا بوقوع القبض على الخد يم بوسلهام الرميقي لأجل ما قررته من الأسباب المقضية لذلك وتوجه عبد السلام الأودي لمقابلة الأمور بالعرائش حتى يظهر وشروعك في مباشرة أمر تسريح المقبوض وصار الكل بالبال والسلام 3 شعبان الأبرك 1326.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خديمنا الأرضى الطالب الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمت الله وبعد فقد وصل كتابك صحبة تقييد أمتعة الرميقي وكتاب من مولاي إدريس الأمراني وأن المكلفين أمروا بإحصاء ما بدار الرميقي وفإذا به وقع منهم التعدي على دور الغير وصار بالبال أما التقييد المذكور فقد طولع به علمنا الشريف وأما التعدي على دور الغير فقد أجبت عنه في غير هذا والسلام في 9 شعبان 1326هـ/1908م.

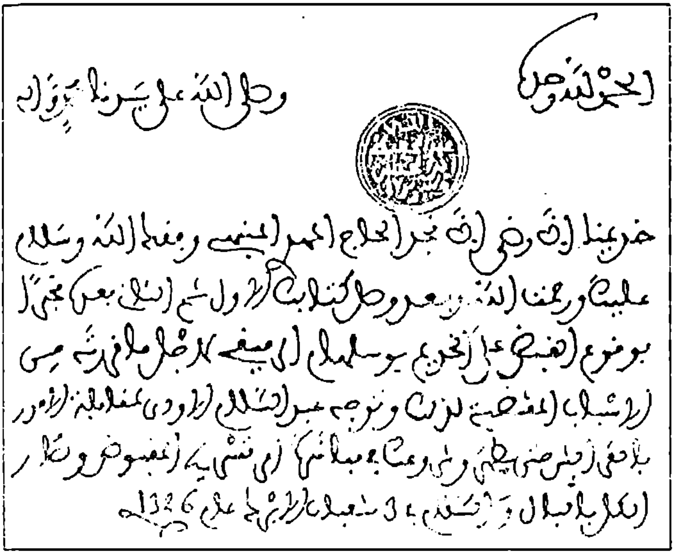

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خديمنا الأرضى الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام
عليك ورحمة الله وبعد وصل كتابك الأول [illegible]
بموضوع القبض على الخديم بوسلهام [illegible]
[illegible] الأسباب [illegible]
[illegible]
[illegible] والسلام في 3 شعبان [illegible] عام 1326

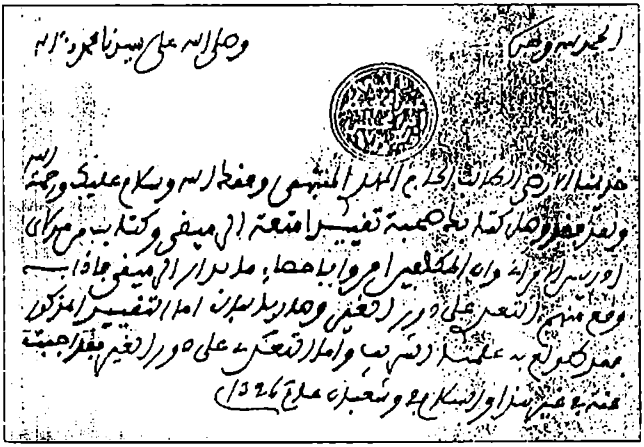

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خديمنا الأرضى الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله
وبعد فقد وصل كتابك بخصوص تغيير [illegible] وكتاب [illegible]
[illegible]
وقع منهم التعدي على [illegible] أما التغيير المذكور
[illegible]
[illegible] والسلام في [illegible] شعبان عام 1326

الحمد لله وحده 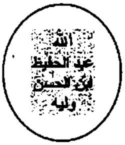 وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خديمنا الأرضى الحاج المهدي بن العربي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد وصل كتابك إعلاما بتوجيه أخينا مولاي الزين لحضرتنا الشريفة وطلب مقابلته بالجميل مما شرحته من حاله ومحبته في جنابنا الشريف وصار بالبال فقد وصل ونحن على بصيرة من الاعتناء به والسلام في 28 قعدة الحرام عام 1326هـ.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خديمنا الأرضى الطالب الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد وصل كتابك معلما بأن مرسى طنجة متوقفة على إقرار أمين من المستخدمين الآن بها لمعلمه بأحواله وأن الأولى بالإقرار بها منهم هو الطالب محمد ابن جلون وصار بالبال فها نحن على بال من ذلك سنرى فيه بالمقتضى والسلام في 28 رمضان المعظم عام 1326هـ.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

خديمنا الأرضى الأنصح الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمت الله وبعد وصل كتابك بما كتب لك به أخونا مولاي يوسف من عزمه عن القدوم لشريف حضرتنا وطلب معاملته بالصفح والجميل حسبما بكتابه الذي وجهته طالبا معاملته بما يليق به من البرور والصفح وصار بالبال فمرحبا به فلا يرى إلا خيرا وجميلا إن شاء الله والسلام في 24 رمضان عام 1326 هـ/1908م.

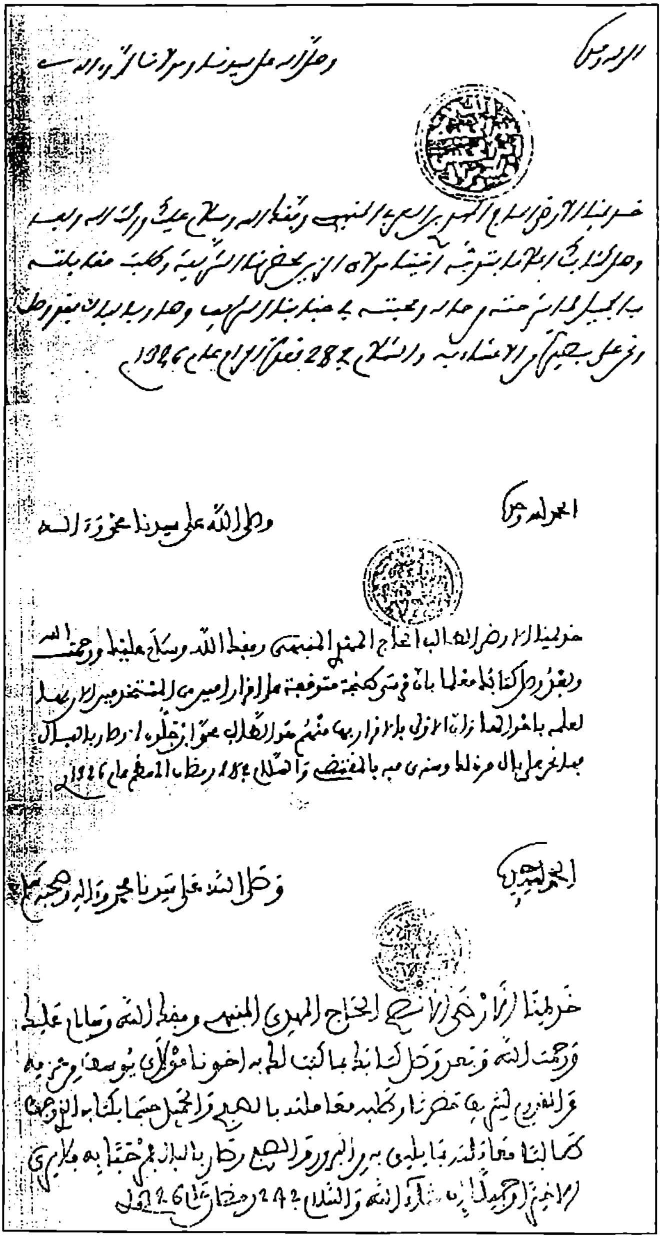

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

خديمنا الأرضى ... المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته

[illegible]

والسلام في 28 قعدة الحرام عام 1326

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خديمنا الأرضى الطالب الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله

[illegible]

والسلام في 18 رمضان المعظم عام 1326

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

خديمنا الأرضى الأنصح الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد وصل كتابك بما كتب لك به أخونا مولاي يوسف

[illegible]

والسلام في 24 رمضان عام 1326

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خديمنا الأرضى القائد الحاج التهامي المزواري وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فقد أنعمنا على الحاج المهدي المنبهي برد داره الكائنة بقاعة بناعضر من مراكش المحوزة منه سابقا وعليه فنأمرك بدفعها لنائبه هناك بجميع ما اشتملت عليه من المنافع والمرافق التي كانت معها وقت الحيازة وقد أصدرنا شريف أمرنا بذلك لأمين الأملاك المخزنية تمت والسلام في 12 رمضان المعظم عام 1328هـ.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

خديمنا الانجد الأرضى الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد وصل كتابك مهنئا جنابنا العالي بالله بما امتن الله تعالى به من الظفر بالفتان أبي حمارة والامكان من حزبه وشيعته وعلمنا ما أشرت إليه من الفرح الحاصل لك على ذلك. وصار بالبال فهنأك الله بما تريد وهو المخول سبحانه أن يجزينا على ما عودنا من مزيد الفتوحات والأسعاد ويمدنا من معونته على ما نحاول من إصلاح البلاد والعباد وما أومأت إليه من الفرح الحاصل لك في ذلك. وصف نعلمه منك ومحبتك وخدمتك لا تجهل أصلحك الله والسلام في 26 شعبان الأبرك عام 1327هـ/1909م

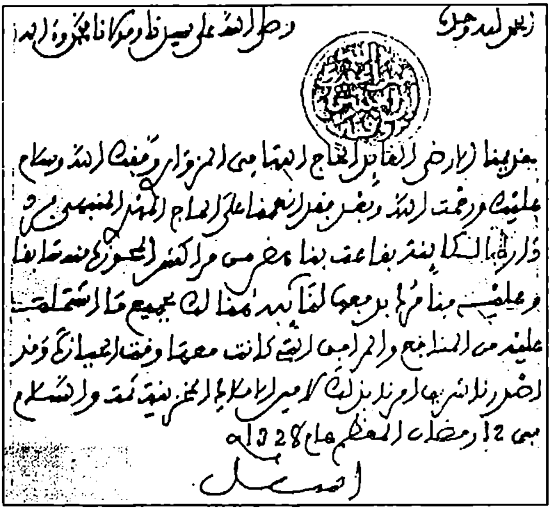
الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

خديمنا الأرضى الفاضل الحاج التهامي المزواري وفقك الله وسلام
عليك ورحمة الله وبعد فقد أنعمنا على الحاج المهدي المنبهي [illegible]
[illegible]
وعليه [illegible] بجميع ما اشتملت
عليه من المنافع والمرافق التي كانت معها [illegible]
[illegible] والسلام
في 12 رمضان المعظم عام 1328

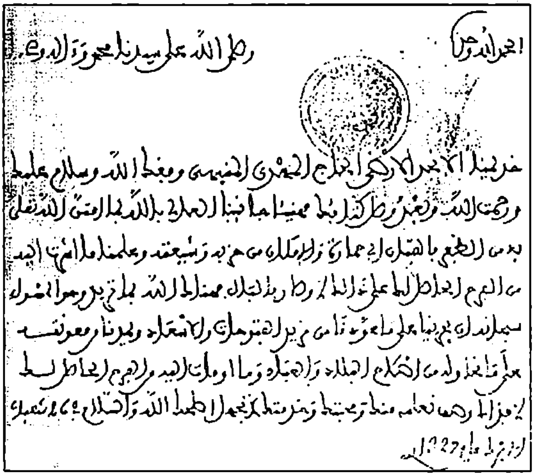
الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خديمنا الأنجد الأرضى الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك
ورحمة الله وبعد فقد وصل كتابك [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] والسلام
[illegible] 1327

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

محبنا الأعز الأرضى محل الأخ الأجل الأحظى السيد الحاج المهدي المنبهي أمنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير سيدنا أيده الله وبعد وصل كتابك في شأن الفقيه السيد المهدي غريط وعلمنا بايصائك عليه وقد أنهيناه لعلم مولانا أيده الله وصار بباله الشريف ولانقصر في جانب المذكور ولا يرى بحول الله من حلم مولانا إلا ما يسره وعلى المحبة والسلام في متم حجة عام 1326هـ.

بلعباس الفاسي كان الله له.

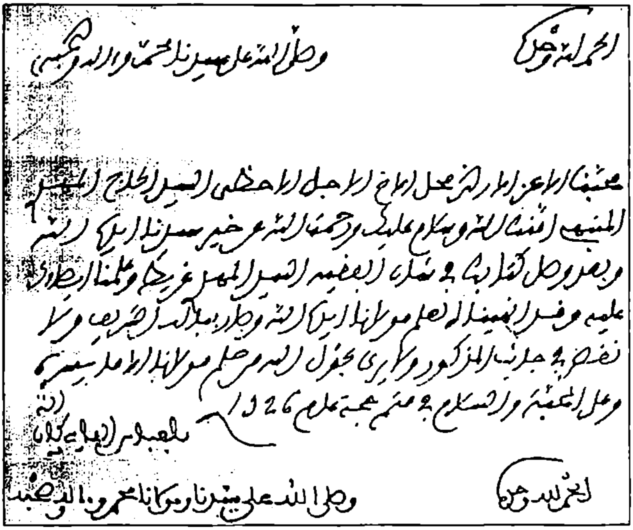

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

محبنا الأعز الأرضى محل الأخ الأجل الأحظى السيد الحاج المهدي
المنبهي أمنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير سيدنا أيده الله
وبعد وصل كتابك في شأن الفقيه السيد المهدي غريط وعلمنا بايصائك
عليه وقد أنهيناه لعلم مولانا أيده الله وصار بباله الشريف ولا
نقصر في جانب المذكور ولا يرى بحول الله من حلم مولانا إلا ما يسره
وعلى المحبة والسلام في متم حجة عام 1326
بلعباس الفاسي كان الله له

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه.

أيد الله بمنه سيادة محبنا الأعز الأرضى الفقيه الأجل الوجيه الأحظى سيدي المهدي المنبهي وسلام على سيادتك ورحمة الله عن خير مولانا أعزه الله وخلد ملكه وبعد فقد وصلنا كتابك بأنه اقتضى الحال إجراء مؤن العسكر السعيد بالثغرين السعيدين الرباط وسلا على المنوال الذي وجهت لنا طيه نسخة منه لنجري العمل في توزيعها عليهم على مقتضاه حرفا حرفا ونجعل لجملة العساكر السعيدة هنا طالبا يسمى كاتب الطابور ومونته اليومية مونة ملازم ووظيفته توزيع المونة وضبط حسابها وتوجيه قوائم العسكر بواسطتنا أسبوعيا والدراهم اللازمة لذلك سيكون يوجه لنا منها قدر كاف لعدة أسابيع وعندما يقرب نفادها يوجه لنا مثلها وتوزع بمحضر الحراب المكلف هنا لتدفع بمحضره على العمل الجاري في ذلك ووصلنا طيه ما نصة على نائب البنك المخزني قدرها تسعة آلاف بسيطة مخزنية للغرض المذكور وقد عينا طالبا للعمل المذكور وبينا له كيفية العمل وما يتمشى عليه في ذلك ويومه توجه لسلا ومعه الحراب المذكور لمرقد العسكربها ودفع مؤنته يدا بيد طبق الأمر فأجابهما خليفة العامل بأنه ورد عليه الأمر بدفع مونة العسكر من عند أمين المستفاد بسلا وتفريقها يكون على يده أي الخليفة وقد رجعا لحال سبيلهما وبه تعين إعلامكم وعلى المحبة والسلام في 26 شعبان عام 1326هـ.

أمناء مرسى العدوتين:

عبد الكريم اللبادي الصديق بركاش عبد العزيز بركاش.

الحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

أيد الله جناب سيادة محبنا الأعز الأرضى الفقيه الأجل الأنجد الوجيه الأحظى سيدي المهدي
المنبهي وسلام على سيادتك ورحمة الله عن خير مولانا أعزه الله وخلد ملكه وبعد
فقد وصلنا كتابك بأنه اقتضى النظر الجميل أن العسكر المستقر بالثغر المستقر في
الرباط وسلم على الأموال التي وجهت لنا كيفية تحقيقه الغرض العمل في توزيعها عليهم
على مقتضاه من يحتاج إليه ويجعل جملة العساكر المستقرة هناك الآن بمن كان بتلك الطابور
ومن تقبل بقوميته ومؤنته لازم ونحب تبيين توزيع المؤنة وضبط حسابها وتوجيه ضوابط
العسكر بولاة لنا استوعبناه وأمرنا الأمين لتوليته من يكون يوجد لنا منها من كان
يعرف الطبع وعند الأبقى يتناول ما يوجد لنا مثلها ونوزع بعض الحراب الذي كلفتم من
لتمرنهم على العمل الجاري في ذلك ووصلنا كيفية ما نصه على يد البعث
المذكور منها تفصيلا الذي به تتعلق للغرض المذكور وفرحنا لطالبا العمل
المذكور ويبينا لك كيفية العمل وما ينبغي عليه في ذلك ويوجد توجد لك ويجد الحال
المذكور [illegible] العسكر [illegible] ما جاء به فلتعد الغاية
بأنه [illegible] عليه [illegible] مؤنة العسكر [illegible] المستفادة منها وتم [illegible] يكون
على [illegible] وتوجه [illegible] ويد [illegible] وعلى [illegible] والسلام
في 26 جمادى عام 1316 [illegible]

[illegible]

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم .

محبنا الفقيه الأمجد الناصح الارشد سيدي المهدي بن العربي المنبهي بن العربي المنبهي أمنك الله ورعاك وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا دام علاه وبعد فقد ورد كتابك في شأن ما وجه من الدراهم ليد أمناء المرسى هنا بقصد مئون العسكر السعيد به ما شرحته فحين تصل المونة بحول لله نقف ولا نقصر وفق ما شرحته في ذلك وحيث قدمنا العرائش وجدنا مقيما بالدار الذي سنسكنها السيد عبد السلام الأودي وسمعنا من جل أهل البلد أنه عنده كتاب من عند سيادتكم بالإقامة هنا فوجهنا عليه وتكلمنا معه مشافهة في شأن جلوسه فذكر لنا أنه متمسك بكتابك وأنه لا يقوم من مقامه حتى تأذنه بالنهوض ولا يخفى أن في ذلك ضرر يخاف عليه وبسبب جلوسه ربما يقع تشويش في المدينة مع القبائل الذي تولينا عليها ويحصل من ذلك ضرر ومراد سيدنا أعزه الله الهدنة والأمنية ونحبك بارك الله فيك تكتب له وتأذنه بالنهوض على الفور ليتوجه لحال سبيله حيث ذكر لنا أنك المأذون له بالإقامة ولولا ذلك لما تركناه بطرفنا الفور ساعة وكذلك قبيلة الساحل وجهنا عليها ليقرءوا كتاب سيدنا نصره الله بتوليتنا عليهم فوجدنا أصحاب الشريف مولاي أحمد الريسوني يأذنهم بالقدوم عنده نحبك بارك الله فيك تكلمه الآن لأن في ذلك تشويش على القبائل وهو رجل عاقل ودمتم في حفظ الله وعلى الخدمة والمحبة والسلام في 18 شعبان الأبرك عام 1326هـ.

عبد الرحمان بن عبد الصادق وفقه الله.

الحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

محبنا الفقيه الأجل الناصح [illegible] بن المنبهي أمنك الله
ورعاك وسلام عليك ورحمة الله [illegible] وبعد فقد ورد كتابك
في شأن ما وجه من الدراهم [illegible] هنا [illegible] العسكر السعيد [illegible]
[illegible] بحول الله [illegible]
في ذلك [illegible]
[illegible] أهل البلد وأنه عندك كتاب [illegible]
عليه [illegible]
وأنه لا [illegible] في ذلك [illegible]
عليه [illegible]
عليها [illegible] في ذلك [illegible]
[illegible] الله [illegible]
[illegible]
[illegible] عندك [illegible]
[illegible] على القبائل وهو رجل عاقل [illegible]
في [illegible] الله وعلى [illegible] والمحبة والسلام في 18 شعبان [illegible] عام [illegible]
[illegible]

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

خديمنا الأرضى الطالب المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد وصل كتابك تهنية لجانبنا الشريف بطالع عيد الفطر السعيد الذي فاحت أزهاره وأشرقت أنواره وصار بالبال هناك الله بدوام الرضى وبلغك ما تحب وترضى والسلام في 20 شوال الأبرك عام 1331هـ.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خديمنا الأرضى الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمت الله وبعد وصل كتابك مهنيا جنابنا العالي بالله بطالع المولد النبوي والموسم المصطفي الذي فاضت في رياض الوجود أزهاره وطلعت في سماء السعود شموسه وأقماره وصار بالبال هنأك الله باليمن والأمان ودوام الراحة والاطمئنان وبوأك من بحر الإسعاد مددا ومن مقام الرضى مقعدا وأصلحك والسلام. في 24 ربيع الأول عام 1332.

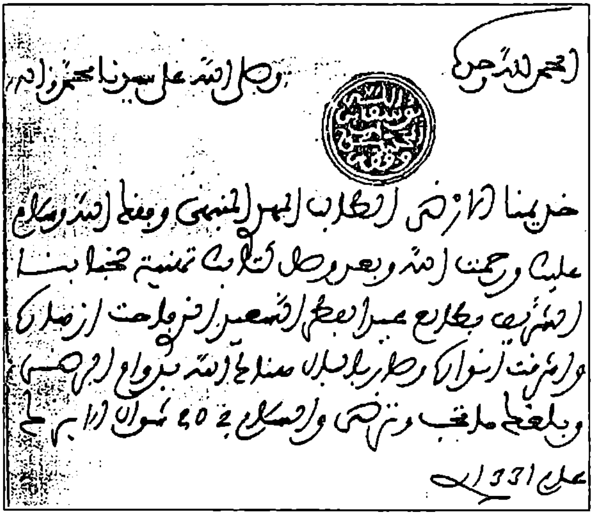

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

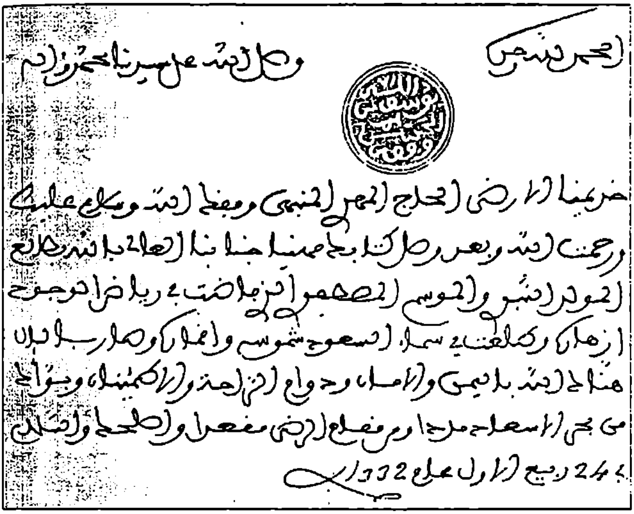
الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

خديمنا الأرضى الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك
ورحمة الله وبعد وصل كتابك مهنيا جنابنا العالي بالله بطلوع
المولد النبوي والموسم المعظم الذي ملأت به رباط الفتح جموع
أزهاره وكللت به سماء السعود شموسه وأقماره وصار بالبال
هنأك الله بالنعم والآمال ودوام الراحة والاطمئنان وبلغك
من جميل الاستقلال مرجاك ومن فضل الرضى منعماك والصلاح والسلام
في 24 ربيع الأول عام 1332

الحمد لله وحده (الله محمد بن يوسف وليه) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله.

خديمنا الأرضى الطالب المهدي منبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد وصل كتابك مهنيا جنابنا العالي بالله بالعيد الكبير وموسم الحج الشهير وصار بالبال هنأك الله بكل خير وأصلحك ورضي عنك والسلام 13 حجة متم عام 1347هـ.

الحمد لله وحده (الله محمد بن يوسف وليه) وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

محب جنابنا الشريف الطالب الحاج المهدي المنبهي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد وصل كتابك معزيا جنابنا العالي بالله في عمنا المرحوم

مولاي عبد الحفيظ وصار بالبال تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته وأحسن عزاءك وأصلحك وأعانك والسلام في 8 صفر عام 1356هـ/1937 م.

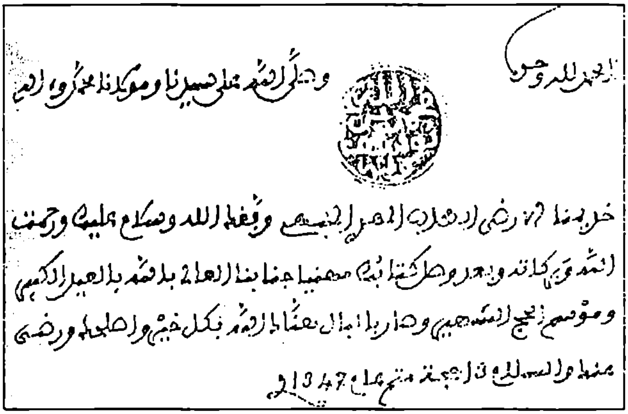

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

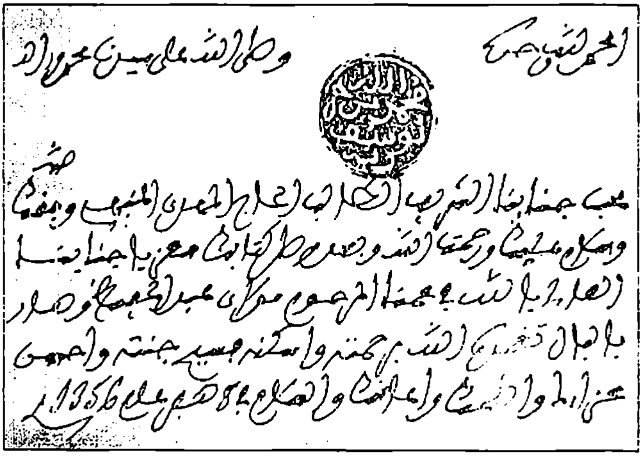

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

محبنا ... الشريف الطالب الحاج المهدي المنبهي وبعد فالسلام عليك ورحمة الله وبعد وصل كتابك معزيا جنابنا في ... مولاي عبد الحفيظ وصار بالبال تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته وأحسن عزاءك وأصلحك وأعانك والسلام في 8 صفر عام 1356

الحمد لله وحده

عمدة ذوي الإجلال المتسنم ذروة سنام الكمال حضرة الأجل الأمجد الأعز الأوحد جناب المهدي المنبهي حفظه الله تعالى وأبقاه وبعد إهداء أزكى سلام سليم ختامه مسك ومزاجه من تسنيم وصلنا كتابكم الكريم وحصل لنا بوصوله مزيد السرور العظيم حيث أفاد عن صحة حالكم وكمال صفاتكم ونحن لله الحمد بأحسن حال وأنعم بال وما أفدتم من اشتياقكم إلينا ونحن كذلك نرجو الله أن ييسر بالاجتماع في أشرف البقاع وقد وصل الشيخ شعيب بخير وبلغنا سلام حضرتكم وأنا لم نزل ممنونين من جنابكم إلى الغاية ولمعلوميتكم حمل هذا ودمتم في حفظ الله والسلام في 27 شوال 1225هـ/ 1907م

أمير مكة المكرمة.

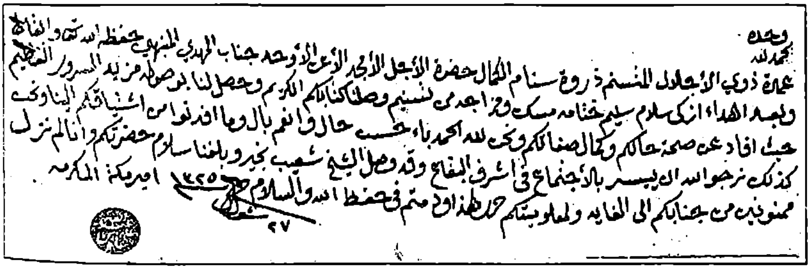
وحده الحمد لله
عمدة ذوي الاجلال المتسنم ذروة سنام الكمال حضرة الاجل الامجد الاعز الاوحد جناب المهدي المنبهي حفظه الله تعالى وابقاه
وبعد اهداء ازكى سلام سليم ختامه مسك ومزاجه من تسنيم وصلنا كتابكم الكريم وحصل لنا بوصوله مزيد السرور العظيم
حيث افاد عن صحة حالكم وكمال صفاتكم ونحن لله الحمد باحسن حال وانعم بال وما افدتموه من اشتياقكم الينا ونحن
كذلك نرجوا الله ان ييسر بالاجتماع في اشرف البقاع وقد وصل الشيخ شعيب بخير وبلغنا سلام حضرتكم وانا لم نزل
ممنونين من جنابكم الى الغايه ولمعلوميتكم حرر هذا ودمتم في حفظ الله والسلام [illegible] ٢٧ [illegible] ١٢٢٥ امير مكة المكرمه .

وساطة المنبهي وملابساتها

قد يتبادر إلى الذهن أن المهدي بانسحابه الهادئ من الحكم واستقراره في مدينة دولية آمنة كطنجة قد دفن آخر أحلامه في أن يلعب أي دور في السياسة المغربية، وطوى إلى الأبد أمله في أن يحتل منصبا رفيعا في الجهاز الحكومي، ولو تحت ظل الحماية الفرنسية.

ولكن الأحداث تكذب كل ذلك، وتبرهن على أنه كان يتطلع إلى أن يلعب ورقته الأخيرة، ويفرغ آخر ما في جعبته ليحتل كرسي الوزارة من جديد–أية وزارة كانت! – ولو في ظل دولة كان يقاوم نفوذها ويتصدى لمخططاتها الرامية إلى بسط هيمنتها وأحكام قبضتها على المغرب آخر معقل مستقل في بلدان إفريقيا الشمالية.

فها هو يمد يده لأعداء الأمس يراوغهم ويداهنهم، انسجاما مع طبيعته وانطلاقا من سياسته التي تومن بالأمر الواقع وتعتمده، وتتكيف مع الظرف وتسايره، وتجنح إلى التعايش السلمي وتخادنه.

وكانت آخر محاولاته أن يقوم بدور الوسيط بين السلطات الفرنسية وأحد كبار المقاومين الأباسل لعساكرها المدججة بأحدث سلاح وأقوى عتاد في منطقة جبال الأطلس الشامخ 1912–1913، ألا وهو البطل موحا أوسعيد المشهور بما أوقعه بالجيش الفرنسي دفاعا عن أرض الوطن وسيادته.

في نظرنا أن الوزير قد أغراه بالقيام بهذه الوساطة أمران :

الأول : أنه كان على يقين تام واعتقاد جازم وعلم مسبق أن الوقت يعمل لصالح المستعمر لا لصالح المقاومين، وأن الحرب مهما طالت واتسعت دائرتها واتقدت شرارتها، وأن المقاومين مهما صمدوا وانتصروا، وأن الجيوش الفرنسية مهما تكبدت من خسائر وفقدت من عساكر، وانهزمت في

مواجهات ووقائع، فإن الخاتمة حتما لن تكون إلا لصالحها والظفر لن يكون إلا من نصيبها.

ولاشك في أن الوسيط كان يرى هاته النتيجة ويعلمها، كما أن البطل المحارب كان هو أيضا مقتنعا بها ولايجهلها، لكن وطنيته ومركزه القيادي جعلاه يقاوم إلى النهاية، بينما حصافة المهدي واقتناعه قناعة السياسي المحنك باجتناب كل عمل لا فائدة ترجى من ورائه، شجعته على القيام بهذا الدور الذي لو نجح فيه لانقلب وضعه، وتبدل حاله، وانفتحت صفحة جديدة في حياته السياسية.

الثاني : إن الوساطة كانت – لما عرضت عليه أو عندما رشح لها نفسه – ورقته الأخيرة التي ستؤهله لمنصب وزاري جديد في الهيئة الحكومية المخزنية في ظل الحماية الفرنسية. ولا يعقل أن يقوم المهدي بدور خطير كهذا–مغازلا عدو الأمس– دون مقابل يعيد له اعتباره ويحله المكانة التي يرى أنه أهل لها فلا أقل من منصب وزير ولو بصفة صورية.

وسائط المهدي كما رواها القبطان كوريي

يتحدث القبطان الفرنسي كوريي في الصفحة 295 من كتابه"فتح جنوب المغرب" فيقول :

((لقد اختطف ابن موحا أوسعيد الضابط دوهوم من موقع جد قريب من الخطوط الفرنسية.))

وقد حاولت القيادة الفرنسية –تفاديا للخسائر الجسيمة التي كانت تتوقعها من هذا الثائر العنيد–أن تسلك طريق المفاوضات، فتضمن مصالح هذا القائد مقابل ولائه لسلطاتها وانضوائه تحت ما تضمنه معاهدة الحماية من توحيد كافة أطراف المغرب تحت راية السلطان الشرعي.

((يقول المؤلف : لقد أوحت فرنسا بفكرة الوساطة لوزير الحربية السابق المهدي المنبهي الذي كانت تربطه بالثائر موحا أو سعيد روابط قديمة فوجدت

منه استعدادا للقيام بهذه المهمة، وسافر من طنجة إلى قصبة تادلا مقترحا على رفيقه القديم التسليم بالأمر الواقع لقاء ضمانات تحفظ مصالحه، وتحافظ على مركزه ونفوذه، غير أنه–ليس كما كان مرتقبا– اتخذ موحا موقفا مخالفا لما اقترحه عليه رئيسه السابق.

وقد وصف المؤلف المقابلة بأن الذين حضروها من المقاومين أنصار الثأر قد صرخوا في وجه المنبهي منادين بإعدامه. وقد كانت هذه المقابلة هي المقابلة الأولى والأخيرة التي جمعت بين المتفاوضين لان موحا أوسعيد أصر على إغلاق هذا الملف برفضه فتحه من جديد ، بل ذهب إلى أكثر من هذا حيث قابل إلحاح الفرنسيين باستيناف المفاوضات ببرودة وتهكم وكبرياء.

وفي اعتقاد المنبهي أن رئيس المتمردين كان سجين مقاتليه عندما اتخذ قرارا نهائيا بمتابعة القتال، مما دفع بالمنبهي إلى أن يهمس للجنرال ليوتي بحضه على مواصلة الحرب فلا حل إلا ماتمليه المدافع)).هـــ

وبذلك يتبخر آخر امل للمهدي في تحقيق أحلامه بالعودة إلى الحكم .

نستنتج من هاته الصورة التي قدمها لنا كورني أن هذين الشخصين يعطيان اصدق مثال للطبيعة المغربية في حالتي الحرب والسلم، وفي سياسة المقاومة والمفاوضة، فيتبين لنا أن المغربي في الحروب صبور شجاع عنيد ذو كبرياء، لا يسمح أن يخدش شرفه ولا يتحمل أن تداس كرامته يسترخص كل غال في سبيل الدفاع عن وطنه وعقيدته.

بينما نرى السياسي المغربي عموما ميالا إلى السلم، قد يتنازل في سبيل تحقيقه عن الأساسيات والثوابت ماعدا المعتقدات والمقدسات، قصير النظر لا يهتم بالتخطيط من البدء إلى الانتهاء، ولا يتجاوز تفكيره الأرض إلى السماء.

فهو على عكس المحارب لين العريكة، سهل الاخيذة، يعقد الآمال على الأقدار أكثر مما يبنيها على الأفكار، ويحسن الظن فيما قد يخبئه الغيب من مفاجئات لصالحه علها تخفي ما عجز عن تحقيقه.

علاقة المهدي بالانجليز :

صورة المنبهي مع العائلة الملكية الأنجليزية

عرف المهدي بعلاقته الحميمية مع الانجليز فلا يثق في غيرهم من الأجانب
وربما كانت ميوله إليهم في أول الأمر عن تفكير وروية، وحسب الأوضاع المغربية في ذلك العهد، فالحالة التي كان عليها المغرب والضغوط التي كان يعاني منها بسبب أطماع الدولتين الجارتين أسبانيا في سبتة ومليلية والصحراء المغربية، وفرنسا على التخوم الجزائرية قد دفعت به إلى الاعتقاد أن لا مفر

لدولة كالمغرب معزولة عن العالم الخارجي ومطوقة بدولتين استعماريتين عظيمتين من الاستناد إلى دولة قادرة على حمايته، ومنافسة للدولتين المتكالبتين في ميدان القوة وبسط النفوذ بالإضافة إلى أنها مطلة على المغرب من جبل طارق ويهمها ألا تسقط شواطئه في يد اسبانيا على الأخص.

وقد كان الانجليز يعتبرون المهدي العين الساهرة على مصالحهم في المغرب، فكان يحج إليهم سفيرا ويشتري منهم السلاح وزيرا، وكانوا هم بدورهم يحتفون به احتفاء فائقا ويهتمون به اهتماما خاصا سواء عندما كان يحتل منصبه الرفيع أو عندما انزوى في منفاه البديع فيستدعونه للمشاركة في احتفالات يحضرها ملك انجلترا كما كان يبادلهم التهاني والهدايا ويشكرونه على احتفائه بأعضاء العائلة الملكية عند حلولها بمدينة طنجة.

وهكذا بقيت علاقته بهم وطيدة وهو في منفاه حيث بقي وفيا لهم، فبادلوه نفس الشعور ووضعوا فيه كامل الثقة وعاملوه بكامل الاحترام واللياقة.

ولا أدل على هذا الوفاء المتبادل من الرسائل التي يجدها القارئ في آخر هذا الفصل.

بالإضافة إلى ذلك فقد أخبرني حفيده السيد عبد الحق بن عبد الرحمن بن المهدي وأنا معه في منبهية[1] طنجة التي شيدها جده سنة 1322هـ أن باخرة إنجليزية كانت قد عصفت بها رياح المضيق فأغرقتها فما كان من الوزير إلا أن وضع مقر سكناه تحت تصرف هيئة الإغاثة تنقل إليه من نجا من الكارثة فصار القصر مأوى للمصابين ومستراحا للناجين.

وسنجد من ضمن الوثائق رسالة من السيد أليس لوذر–مرافق ابنة ملك إنجلترا وابنتيها في رحلتهن إلى طنجة سنة 1907 تشكر فيها الأميرة المهدي على حسن ضيافته لهن واحتفائه وعائلته بهن وعلى التحف التي أهداها لهن.

[1] يوجد قصر المنبهية بطنجة في شارع أسد بن الفرات – مرشان-رقم : 32.

الحمد لله وحده

أدام الله العز والنصر والتمكين والظفر والتأييد لأمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين مولاي عبد العزيز سلطان دولة مراكشة المفخمة بعد أداء ما يجب لعلي مقام الشريف من الإجلال والتعظيم ينهى لكريم علم الحضرة الشريفة أن السفير الخاص بحضرتكم لدى حضرة سلطاننا المفخم أبلغ لي بعض الإشارات النفيسة الثمينة الدالة على حسن مراد حضرتكم لجانبنا مع زيادة كلام حبية لطيفة من حضرتكم وأريد تقديم حسن مجازاتي واحترامي على ما أظهرت حضرتكم من التلطف، فقد حصل لي غاية السزور بأعمال المعرفة مع أحد ذي ثقة عاقل ناصح لحضرتكم مثل المهدي بن العربي المنبهي وأرجو أن إقامته في الايالة كانت لذيذة مشتهية. فكان لدولة حضرة السلطان السرور باستقبال سفير سلطان مع من عندهم السرور بحفظ العلايق الودادية الكاينة بالسعادة بين اكريت ابريطن والمغرب. فلا أحتاج أن أحقق لحضرتكم مالي ولرفقائي من الدولة من أحقو الاهتمام ولانزال مهتمين اهتماما شديدا في خير ونجاح الإيالة التي تولى عليها حضرتكم. وأتجاسر بايضاح أملي في طول ملك حضرتكم وسعادته وأن العناية الالهية تمن على حضرتكم بكل خير وحسن الحظ.

خط يد شلسبري

في 28 يونيو سنة 1901م.

الحمد لله وحده

ادام الله العز والنصر والتمكين والظفر والتاييد لامير المومنين ابراهيم
المؤمنين مولاي عبد العزيز سلطان دولة مراكشة المحمية بعد اداء ما يجب
لعلي مقام الشريف من الاجلال والتعظيم ينهى لكريم علم الحضرة الشريفة ان
السفير الخاص لحضرتكم لدى حضرة سلطاننا المعظم ابلغ لي بعض اشارات
النفيسة الثمينة الدالة على حسن مراد حضرتكم لجانبنا مع زيادة كمال هيبة
لهيئة من حضرتكم واريد تعريف حسن مجازاتي واهتمامي على ما اظهرت
حضرتكم من التلطف. وبعد حصل لي غاية السرور باعمال المعرفة مع احد
ذي ثقة عاقل ناصح لحضرتكم مثل المهدي بن العربي المنبهي وارجوا ان اقامته
في هذه الايالة كانت لزيارة مشتهية. فكان لدولة حضرة السلطان السرور
باستقبال سفير سلطاني مع من عندهم السرور بحفظ العلائق الوداعية
الكائنة بالسعادة بين الدولتين ابريطانيا والمغرب. فلا احتاج ان احققها
لحضرتكم ما لي ولم يخفى من الدولة من الاهتمام ولا نزال مهتمين اهتماما تاما
شديدا في خير ونجاح الايالة التي تولى عليها حضرتكم. والتماسي بايضاح
املي في طول ملك حضرتكم وسعادته وان العناية الالهية تمن على
حضرتكم بكل خير وحسن الحظ.

مركيز سلسبري

في 28 يونيو سنة 1901 م

الحمد لله وحده

خديم المقام العالي بالله والسفير المحترم للحضرة الشريفة الفقيه الأجل العلامة الأمثل السيد المهدي بن العربي المنبهي بعد مزيد السؤال عنكم محبة أن تكونوا بخير على الدوام فقد حصل لنا غاية السرور بقبول التحفة التي تفضلتم بإرسالها لنا بأمر سيدكم السلطان وسنحفظها دايما تذكارا لحال لذيذ مسرور في العلايق الكاينة بين دولتينا ويكون لنا السرور إن أبلغتم لحضرة السلطان الكتاب الذي يصلكم طيه. فنغتنم هذه الفرصة لنعلمكم بسرورنا في أعمال المعرفة مع جنابكم وفي محادثتنا مع شخص منيف مثل جنابكم من إيالة كان لنا فيها الرغبة الشديدة دايما . فنرجو أن إقامتكم في بلدنا كانت لذيذة مشتهية وأنكم تيقنتم بالمحبة الكاينة لجانب إيالة مراكشة وباهتمام دولة اكريت ابريطن ورعيتها في كل ما يفضي إلى كشف أحوال بلدكم. فنوجه لكم بعض تذكار مواصلتنا الحبية ونرجو أنكم تقبلوه على وجه المحبة والاعتبار . فنرجو لجنابكم الرجوع السعيد لبلدكم ونطلب أن يصحبكم الخير والعافية مع طول العمر والسلامة.

خط يد لورد شالسبري

في 28 يونيو سنة 1901.

الحمد لله وحده

خديم المقام العالي بالله والسفير المحترم للحضرة الشريفة الفقيه الأجل
العلامة الأمثل السيد المهدي بن العربي المنبهي بعد مزيد السؤال عنكم محبة
أن تكونوا بخير على الدوام فقد حصل لنا غاية السرور بقبول التحفة التي
تفضلتم بإرسالها لنا باسم سيدكم السلطان وسنحفظها دائما تذكارا
لحال الود مدى ورود العلائق الكائنة بين دولتينا ويكون لنا السرور إن
أبلغتم لحضرة السلطان الكتاب الذي يصلكم طيه : فنغتنم هذه الفرصة
لنعلمكم بسرورنا في أعمال المعرفة مع جنابكم وفي محادثتنا مع شخص
شريف مثل جنابكم من إيالة كان لنا فيها الرغبة الشديدة أيضا : فنرجو
أن إقامتكم في بلدنا كانت لديكم مشتهية وأنكم تيقنتم بالمحبة الكائنة
لجانب إيالة مراكش وباهتمام دولة الكريت بريطن ورعيتها في كل ما يفضي
إلى تقدم أحوال بلدكم : فنوجه لكم بعض تذكار مواصلتنا الحبية و
نرجو أنكم تقبلوه على وجه المحبة والاعتبار : فنرجو لجنابكم الرجوع
السعيد لبلدكم ونطلب أن يصحبكم الخير والعافية مع طول العمر و
السلامة : خديم لورد سالسبري

في 28 يونيو سنة 1901

الحمد لله وحده

محبنا الفقيه الأرضى الأجل المحترم السيد الحاج المهدي المنبهي بعد السلام التام عليكم والسؤال عن أحوالكم محبة أن تكونوا بخير دايما فقد أمرنا جناب وزير الأمور الخارجية لحضرة سلطان اكريت ابريطن بإعلامكم بأنه ستفتح كنيسة نيسان سان ميكن وسان جورج المقدسين بكنيسة سان ثول باللندريز يوم الثلاثاء 12 ينيه وقد بين حضرة السلطان المعظم عزمه على الحضور في الافتتاح المذكور والمرجو أن أعضاء النيشان المذكور جميعا الذين هم بانكلطرا يحضرون في هذا الاحتفال المهم وتصدر ورقات الدخول لكل عضو أراد الاحتفال له ولاثنين من عائلته وأن أمكنكم الحضور فتعلموا بذلك كبير نيشان سان ميكن وسان جورج المقدسين في (دوينك سطريد لندن) وعلى المحبة والسلام في 12 مايه 1906 موافق 18 ربيع الأول عام 1324هـ.

منسطر دولة حضرة سلطان اكريت ابريطن بإيالة مراكش

Gerard Lowther .

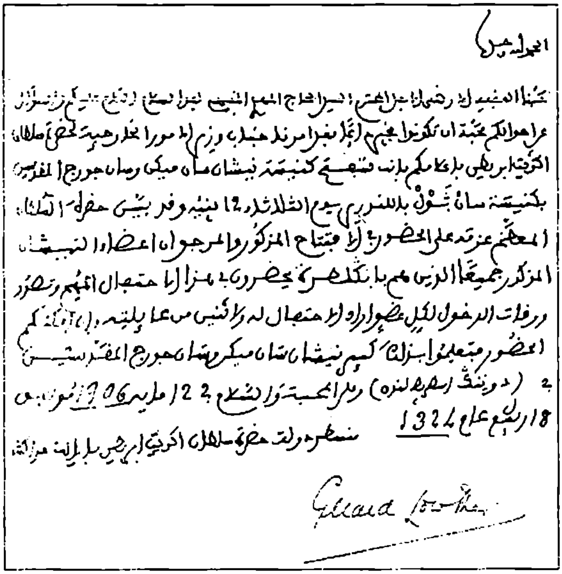
الحمد لله وحده

محبنا الفقيه الأرضى الأجل المحترم السيد الحاج المهدي المنبهي بعد السلام التام عليكم والسؤال عن أحوالكم محبة أن تكونوا بخير دايما فقد أمرنا جناب وزير الأمور الخارجية لحضرة سلطان اكريت ابريطن بإعلامكم بأنه ستفتح كنيسة نيشان سان ميكن وسان جورج المقدسين بكنيسة سان ثول باللندريز يوم الثلاثاء 12 ينيه وقد بين حضرة السلطان المعظم عزمه على الحضور في الافتتاح المذكور والمرجو أن أعضاء النيشان المذكور جميعا الذين هم بانكلطرة يحضرون في هذا الاحتفال المهم وتصدر ورقات الدخول لكل عضو أراد الاحتفال له ولاثنين من عائلته وإن أمكنكم الحضور فتعلموا بذلك كبير نيشان سان ميكن وسان جورج المقدسين في (دوينك سطريد لندن) وعلى المحبة والسلام في 12 مايه 1906 موافق 18 ربيع الأول عام 1324

منسطر دولة حضرة سلطان اكريت ابريطن بإيالة مراكش

Gerard Lowther

ترجمة :

الحمد لله

الفقيه الأجل السيد الحاج المهدي بن العربي المنبهي بعد السلام عليكم محبة أن تكونوا بخير نعلمكم بأنه قد كتبت لنا البرنسيس الملكي بأن نبلغ لكم مجازاتها عن تحفكم الجميلة وقد اعتبرت ذلك غاية كما أنها أمرتنا أن نطلب منكم الاعلام لأهل داركم بما حصل لها من السرور لما قوبل به جنابها وابنتها من الضيافة والخير على يدهم ونزيد أحسن مجازتنا لما أظهرتموه من البشاشة لجانب ابنت سلطاننا المعظم ولجانبنا والسلام في 28 مارس سنة 1907.

محبتكم الخالصة

خط يد أليس لوذر.

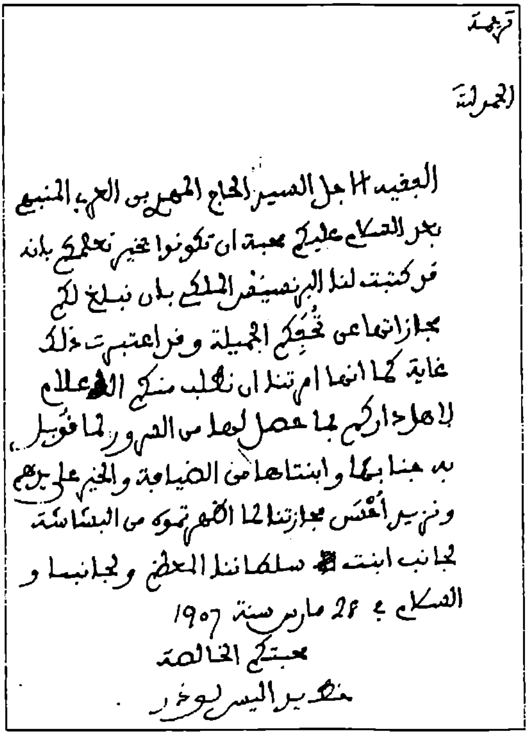

ترجمة

الحمد لله

الفقيه الاجل السيد الحاج المهدي بن العربي المنبهي
بعد السلام عليكم محبة ان تكونوا بخير نعلمكم بانه
قد كتبت لنا البرنسيس الملكي بان نبلغ لكم
مجازاتها عن تحفكم الجميلة وقد اعتبرت ذلك
غاية كما انها امرتنا ان نطلب منكم الاعلام
لاهل داركم بما حصل لها من السرور لما قوبل
به جنابها وابنتها من الضيافة والخير على يدهم
ونزيد احسن مجازتنا لما اظهرتموه من البشاشة
لجانب ابنت سلطاننا المعظم ولجانبنا و
السلام في 28 مارس سنة 1907
محبتكم الخالصة
خط يد اليس لوذر .

كلفة بالعمران :

كان المهدي بالإضافة إلى أريحته وبذخه وحبه لحياة الترف وحرصه على التمتع باطاييب الدنيا –شغوفا بتشييد القصور، مغرما بزخرفتها وتزويقها، وإضافة طابع الأبهة عليها.

نجد له في مراكش قصرا فخما مساحته 1895 متر مربع، صار اليوم متحفا خاصا لعائلة بنجلون تعمل على إغنائه بالفنون الجميلة وتسهر على إدارته، كان من قبل تابعا لوزارة الشبيبة والرياضة.

قال السيد عبد الحق أن جده وهبه للباشا التهامي الجلاوي.

كما نجد له بمدينة فاس قصرا ثانيا بسويقة ابن صافي قيل لي إنه صار مطعما معدا لاستقبال السياح الأجانب[1].

أما مقره الاخير وملجؤه في منفاه الاختياري بعد أفول نجمه فقد كان مدينة طنجة، ولازال بها إلى الآن– في ملك ورثته – قصر فخم يعطينا فكرة عن تعلق هذا الرجل بالبناء المخزني، على الطراز الأندلسي، الذي يشهد للفنان المغربي بعبقريته وطول نفسه في التعامل مع الحجر والخشب والجبص والفسيساء.

وقد قال لي حفيده أن قصر التازي بالرباط كان في الأصل ملكا لجده باعه لعمر التازي.

[1] انظر صورا مأخوذة منه في كتاب الدكتور محمد السجلماسي «فاس مدينة المعرفة والفن»

– ثروته :

اعتمادا على الرواية الشفهية–وهي مصدر من مصادر التاريخ المعتمدة– فقد أخبرني المؤرخ الأستاذ عبد الكريم الفلالي محقق كتاب الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا لأبي القاسم الزياني،– نقلا عن أحد شيوخ طنجة ذاكرا إسمه – أن المهدي لما استقر بقصره الموجود بمدينة فاس وكان قد نقل إليه صناديق تحتوي على آلاف الجنيهات الاسترلينية الذهبية، وضع تلك الصناديق بعضها على بعض وسط فناء القصر، وجمع أهله وأبناءه ثم وقف خلفها وسألهم هل يرونه؟ فأجابوه بالنفي.فقال لهم :

لقد وضعت بينكم وبين الفقر سدا من ذهب فلن يعرف ساحتكم مدى الحياة ولن يطوف بكم أبدا.

((إن هذا الشيخ الطنجي ذهب بالأستاذ الراوي إلى خباز وأشار إلى رجل ممدد على الأرض لا يفصله عنها إلا صفائح من الورق المقوى "الكارتون" وقال : أتعرف من هذا؟ إنه أحد أبناء المهدي لم يجده نفعا سد أبيه الذهبي، وأصبح كما ترى معدما، يلتجئ إلى هذا الفرن ليحتمي من برد الشتاء وقره)).

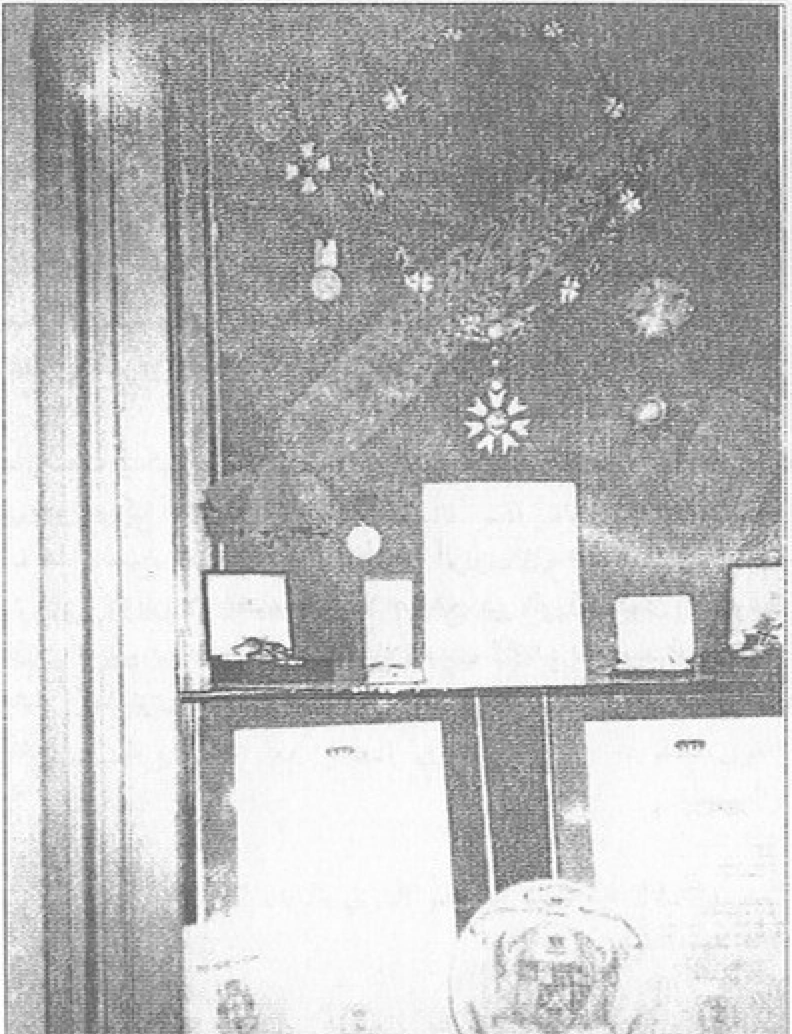

أوسمة أجنبية منحت للوزير المنبهي

المنبهي رجل التحديات

ينتسب المهدي – كما هو معلوم– إلى قبيلة المناهة كما تقدم، وهي إحدى قبائل الجيش التي كانت في المغرب تدعم السلطة، لأنها بمثابة الفرق الاحتياطية تستجيب – متى استنفرتها الدولة–للدفاع عن العرش وسيادة الوطن، وبمثابة الدرع الواقي من اندلاع الفتن والثورات في أطراف المملكة.

ومن المعروف عن هاته القبائل أنها كانت تربي أبناءها على الفروسية الحربية بممارسة ركوب الخيل والرمي بالرصاص أي ما نطلق عليه في المغرب اسم :"الحركة"، حتى تكون على استعداد دائم فتلبي نداء التجنيد وتلتحق بميدان المعركة بمجرد ما تصدر لها الأوامر؛

ومن هذا المنطلق لا نستغرب أن يكون المهدي فارسا وراثة وجنديا وظيفة، وقد وصفه لنا اللواء المصري إبراهيم رفعت باشا في رحلة مرآة الحرمين ج 2 ص 96 :

((وكان إذا بلغه دنو الاعراب من المحمل يقول لخادمه : " هات العود ياولد" يريد جواده فيمتطيه بسرعة ليمنع عن المحمل من عاديات الاعراب، وكثيرا ما سار مع كشافتنا بعساكره المسلحين، وكان جواده يتسلق الجبال بسرعة ومهارة وكذلك يترل منها)).

ومن هذا الجانب لانستغرب عندما نجد المهدي عضوا في نادي ال "بولو" [1] بمدينة طنجة يشارك في مبارياته، والأكثر من ذلك أن يفوز – من بين الاجانب – بكأس في هاته الرياضة.

وقد رأيت في دار المنبهي بطنجة هاته الكأس وهي من فضة وتحمل 29 توقيعا أجنبيا منقوشا عليها ، وقد صرح لي حفيده السيد عبد الحق أن جده كان من مؤسسي ميدان الكولف بمدينة طنجة .

يستنتج من دراسة شخصية المنبهي أنه كان ميالا بطبعه إلى المشاركة في

---

[1] رياضة البولو : كرة خشبية يتقاذفها الفرسان على أرض معشوشبة يتراوح طولها من 250 إلى 300 متر، ينقسم اللاعبون إلى قسمين متساويين،، عموما أربعة فرسان في كل فريق. يحمل كل واحد قضيبا طوله 1.30 م ويضرب الكرة إلى الأمام يحاول كل فريق تسجيل أكبر عدد من الإصابات في مرمى الفريق المنافس الذي هو عبارة عن عارضتين تبعد الواحدة عن الأخرى ب: 7.50 م.

جميع ما يعترضه من ميادين : فهو فارس على جواده، شاك في سلاحه، ومن أعوان الدولة الطموحين، ووزير للحربية وكذلك سفير إلى الدولة الأجنبية، وقائد معارك، ومتصد للوشايات والمكائد، ومحارب مدافع عن المحمل في طريقه إلى الديار المقدسة، ووسيط بين فرنسا والمقاومة المغربية، وحاشر أنفه في شؤون الدولة من طنجة منفاه، ومستقبل مواس لضحايا كارثة الباخرة الانجليزية في مأواه، ومساهم بماله في إنشاء ميدان للكولف، وبطل من أبطال لعبة ال "بولو"، ثم هو في الأخير مشيد قصور أينما أقام بنى دارا لنفسه سماها باسمه " المنبهية" نسبة إلى قبيلته يتفنن في أبهتها وزخرفتها، دون مبالاة بما ينفقه عليها وهكذا نجده قد ترك بصماته الدالة على ذوقه الرفيع، وحبه للفن البديع، في ما بناه بمراكش والرباط وفاس وطنجة. إنها نماذج شاهدة على كلفه بالعمران، وشغفه بمضاهاة الملوك في التشييد والبنيان. ولعله لاحظ وهو في إنجلترا أن ريشة الفنان قد تقوم بما أبي القلم أن يقوم به في حقه وأن الصورة ستبقى شاهدة على وجوده معرفة برسمه فترك لنا لوحتين زيتيتين توحيان بعلو مركزه.

وختاما، فماذا يمكن أن نجمل في المهدي من أقوال وماذا يمكن أن نطلق عليه من أحكام؟ ملخص القول إنه رجل التحدي لأن شريط حياته يدل على أنه خلق للتحديات :

- تحدى – كأعرابي– معيشة البادية لينعم بترف المدينة،
- تحدى جغرافية وطنه فانتقل من منشئه في أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال حيث قضى بقية حياته.
- تحدى المنصب المحترم كقائد على قبيلة ليتبوأ رتبة وزير خطير مقرب ذي حظوة عند مليكه.
- تحدى البساطة في المسكن والمظهر فشيد القصور، وأحاط نفسه بأبهة مكانته وما تقتضيه من علو وظهور.

- تحدى حلّة الحاج العابد، ليلعب دور الفارس القائد، في حماية المحمل من عاديات الأعراب.
- تحدى امتحان السفر له في ترحاله، بالتزامه للخلق الطيب والعمل الصالح والنفس الكريمة،
- تحدى الأعراف فخالط النصارى وعاشر الأجانب.
- تحدى التقاليد فشارك في النوادي ونافس الأبطال في الحصول على أسمى الجوائز.

شيء واحد– فيما أعلم – فاته في صغره، ولم يستطع أن يتداركه فيملكه في كبره، وهو أن يكون عالما ! على كل حال فمدرسة هذا الرجل هي الحياة مع استعداد فطري للاستفادة من دروسها، وحقل تجارب يدعى الإنسان، يحذره، ويتعامل معه بيقظة وذكاء، ويداوره بفطنة ودهاء فقد كان المهدي لا يتدثر بأمان ولا يثق بإنسان، اشتهر بالحيطة والحذر مخافة كيد البشر، يبث العيون ويرصد الخئون، تحسبا لما قد يحدث أو يكون، يعد خطواته، ويتمعن صفقاته، إن سنحت له فرصة كر، وإن لم تكن له نهزة فر، سياسة الداهية معاوية الذي أجاب عمرو بن العاص عندما سأله عن مدى شجاعته فقال :

شجاع إن كانت لي نهزة وإن لم تكن لي نهزة فجبان

الفهرس

إهـــداء 3
تمهيد 5
حقبة قاتمة من تاريخ المغرب 10
– المهدي ابن قبيلة المناهة 11
– المهدي يلتحق بمراكش 11
المناخ السياسي في عهد المولى عبد العزيز 20
– المهدي يقفز إلى الصف الأول 20
– ميول المنبهي السياسية 21
– سفارة المنبهي إلى انجلترا 23
– سياسته 24
– إيمانه بسلطان المال 25
ترتيباته العسكرية وأعماله الحربية 31
الدولة الإنجليزية تحمي الوزير المنبهي 59
علاقات المهدي بعد اعتزاله كرسي الوزارة 61
وساطة المنبهي وملابساتها 79
علاقة المهدي بالانجليز 82
كلفة بالعمران 90
– ثروته 91
المنبهي رجل التحديات 93